أنبياء الله

أحمد عبدالرحيم

hayahbook - حياة

أنبياء الله

تأليف
أحمد عبدالرحيم

للنشر والتوزيع الالكتروني

للنشر من خلال حياة يرجي التواصل من خلال موقعنا
www.hayahbook.net

www.hayahbook.net
Hayah Book
info@hayahbook.net
hayahbookpublisher@gmail.com
@hayahbook
@hayahbook
@hayahbook

تصميم الغلاف : محمد الحمراوي
المراجعة اللغوية : محمود الغنام
الإخراج الداخلي : محمود المصري

جميع الحقوق محفوظة للنشر الالكتروني ل HayahBook
تمت موافقة الكاتب على النشر الالكتروني من خلال HayahBook مجاناً
والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

أنبياء الله

أحمد عبدالرحيم

hayahbook - حياة

مُقدِّمةٌ

تظلّ قصص الأنبياء على مدار التاريخ قصصًا مُهمَّةً جدًّا ومرغوبةً في القراءة والاطّلاع عليها دائمًا، يُعلِّمها الآباء للأبناء، لكنْ ثمَّة مُشكلتان تُقابل الكثير منّا دائمًا:

الأولى: مشكلة الإسرائيليات والأكاذيب والافتراءات التي تملأ الكثير مِن كتب التراث والسيرة التي تتناول قصص الأنبياء.

أمَّا الثانية فهي طريقة سرد تلك القصص والتي تكون في أغلب الكتب أكاديمية وصعبة الوصول للبعض.

في هذا الكُتَيِّب البسيط الذي كُتِبَ على هيئة حلقات خلال رمضان في عام 2019 حاولت أن أتجنَّب المشكلتَيْن وأقدِّم القصص بأسلوب بسيط وبأقصى درجة تحقيق ممكنة.

أتمنَّى أن يكون العمل مُفيدًا لِمَن يطَّلع عليه.

أحمد عبدالرحيم

-1-

آدم أبو البشر عليه السلام الجزء (1)

- ولأننا قرَّرنا التعرُّض للأنبياء الذين أرسلهم الله تعالى لهداية البشر وإنقاذهم مِن الضّلال ومِن براثن الشيطان وبنيه، فقد وجب أن نبدأ الموضوع منذ بدايته الأولى، مِن قَبْل خلق آدم عليه السلام عندما قال الله تعالى لملائكته: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}.
- أبلغ الله تعالى الملائكة قراره بخلق آدم عليه السلام، ولم يكُن قول الملائكة عن اعتراض على الله تعالى إنّما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة مِن ذلك، فقال لهم الله تعالى: { إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}.
- أمَّا عن معرفتهم بما ستفعله ذرية آدم مِن الإفساد في الأرض وسفك الدماء، فقد وَرَدَ أنّ الله تعالى أطلع الملائكة بما ستفعله ذريّة آدم، فجاء استفسارهم ذلك، وهناك مقولة أخرى أنّ الجن سكنوا الأرض قبل بني آدم وأفسدوا فيها وسفكوا الدماء، فقاست الملائكة فعلهم بما قد يحدث مِن ذُرّيّة آدم.

- خَلَقَ الله تعالى آدم بيدَيْه، خلقه مِن أديم الأرض، وهو التراب، لذا سُمِّي بآدم، ولا يعلم مراحل خلق آدم بالتفصيل إلا الله تعالى، فنحن لا نعلم منها إلا ما ذَكَرَه الله في القرآن الكريم، وفي ما يلي بيان ما جاء في مراحل خلق آدم كما فصَّله علماء التفسير:

1- مرحلة الطّين:

- ويقصد به الطّين الناتج عن امتزاج الماء بالتراب، قال تعالى: {ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ}.

وهذا الطين هو طين لازب، أي لزج يلتصق بعضه ببعض وتتماسَك أجزاؤه.

2- مرحلة الحمأ المسنون:

- بعد أن مزج الله سبحانه وتعالى عنصرَي الماء بالتراب حتى تشكَّل الطين اللازب ترك هذا الطين حتى انتقل لمرحلة الحمأ المسنون، وهو طين أسود مُتغيِّر بسبب الترك.

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ}.

أمَّا المسنون فقد جاء فيه أنّه المصوّر الذي تمّ تشكيله على نحو مُعيّن، أو أنّه المصبوب المفرغ حيث أفرغ حتى أخذ صورة الإنسان.

3- مرحلة الصلصال:

- بعد انتقال الطين إلى مرحلة الحمأ المسنون على شكل آدم وهيئته أصبح صلصالًا كالفخار، وهو الطين اليابس.

4- مرحلة نفخ الرّوح:

- بعد مرور آدم بتلك المراحل نفخ الله فيه مِن روحه حتى دبّت الروح في جسده عليه السلام وأصبح بأمر الله يتحرَّك ويتنفَّس.

ثمَّ جاء أمر الله تعالى المباشر للملائكة: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}.

– وبالفعل سجد الملائكة كلهم لآدم طاعةً لأمر الله تعالى، فهم يفعلون ما يُؤمرون ولا يعصون أمر الله إطلاقًا، إلا إبليس، وهنا نرجّح فرضية كونه مِن الجن، فلو كان مِن الملائكة ما عصى الله أبدًا، لكن كونه مِن الجن أعطاه القدرة على الاختيار بين الطّاعة والمعصية، وقد اختار عصيان الأمر.

قارنَ إبليس نفسه بآدم حين أُمر بالسجود له، فوجد أنّه أفضل في الخلق منه، فأخذه الكبر والغرور ورفض أن يسجد له، فقال له الله تعالى: {قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ}.

– وكان السبب في كفر إبليس وغضب الله عليه وطرده مِن رحمته والحكم عليه بالخلود في النار هو عصيانه المبين، بل وردّه على الأمر الإلهي كما وَرَدَ في القرآن الكريم: {قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا}.

– ومن قبل كان أُطلق على إبليس اسم "طاووس الملائكة"، كما جاء في الأثر، يزهو بينهم بخُيَلاء، وهذه الخُيَلاء سببها أنّ إبليس كان له الاختيار، فاختار طاعة الله قبل أن يقوده خُيَلاؤه إلى المعصية.

– رفض الشيطان أن يسجد لآدم كما أمره الله عزّ وجلّ، اغترّ واستكبر، فكان أن طرده الله مِن رحمته قائلا: {فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ}، فردّ الشيطان: {رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}.

فأعطاه الله تعالى طلبه: {فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}.

– وفي موضعٍ آخر قال {وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّه}، وكان ذلك توعّد الشيطان بغواية آدم وذرّيّته.

– أمَّا آدم فقد أسكنه الله تعالى الجنة وخلق له زوجه حوّاء مِن نفسه ليسكن إليها، حيث عاشا حياةً سعيدةً لا حرّ فيها ولا برد ولا تعب ولا كد ولا جوع ولا عري ولا ألم، وأباح له أن يستمتع بكلّ شيء في الجنة إلا شجرة واحدة حرّمها عليهما: {وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِين}.

وهنا يُطرح سؤالٌ: لماذا هذه الشجرة بالتحديد؟

– أغلب الظنّ أنّها ليست شجرة مميّزة، لكن الله تعالى أراد اختبار عزم آدم بذلك النهي، وهو سبحانه الأعلم بما سيحدث، لكنّه ترك لآدم حرية الاختيار، فنسي آدم أمر ربّه وأخطأ.

– ثمّة عدة اجتهادات عن ماهيّة الشجرة المحرّمة، لكن أغلب المُفسّرين مالوا إلى قول الطبري إنّ الله عزّ وجلّ لم يضع دلالة في القرآن الكريم، ولم يرد في الأحاديث الصحيحة عن أيّ أشجار الجنة كان نهيه لآدم.

– ظلّ الفضول والحيرة يمزّق أبوَيْنا في الجنة ويعصف بهما مِن كثرة المباهج وفرط السعادة التي وجداها في الجنة، أرادا أن يخلدا فيها وتلك كانت الفرصة التي ينتظرها إبليس ومِن هنا وجد مدخله إلى آدم فقال له: {هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى}، ثمّ أتبع كلامه بمنطق التشكيك فقال لهما: {مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ}.

"الْخَالِدِينَ".. دوت الكلمة في عقل أبوَيْنا وكانت ذات صدى مذهل لا يُقاوَم، ضعف أبوانا أمامه ولم يتردّد إبليس لحظة.

الخُلد في الجنة...

دارت الاحتمالات في عقل آدم، ربّما فهم نهي الله له على سبيل الإرشاد وليس على سبيل التحريم، ألحّ عليهما وهوَّن الذنب في أعينهما مع تعظيم النتيجة، وصل في النهاية لمراده، لكن السؤال المُهمّ الآن هو: أَلَمْ

يُطرد الشيطان مِن رحمة الله ومِن جنته؟ فكيف إذًا عاد إليها ليُوسوس لآدم ويغويه؟

ونورد الآن أهم ما قيل في ذلك، قيل إنّ إبليس مُنع مِن دخول الجنة مكرمًا وسط الملائكة كما كان يدخلها قبل اللعنة والطّرد، لكنه لم يمنع من دخولها وحيدًا ذليلًا، فدخل وذهب إلى آدم، قابله وحدّثه بصيغة الناصح له والمهتمّ لشأنه حتى أنّه أقسم له بالله تعالى: {وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ}.

وقيل إنّه لم يدخل الجنة بل وقف على بابها ومنعته الملائكة مِن الدخول، فتحدَّث مع آدم على أبوابها، وقال له ما قال.

هناك قصة شهيرة تقول بأنّ إبليس لمَّا أراد دخول الجنة منعته الملائكة فعرض نفسه على دواب الأرض أيّها يحمله فرفض الكل ذلك، حتى كلّم الحيّة فوافقت وحملته في جوفها حتى إذا دخل الجنة خَرَجَ وكلم آدم.

أقرَّ الكثير مِن المُفسّرين بأنّ القصة كلها مِن الإسرائيليات ولا دليل ولا سند لها، وهناك مَن رجّح كونه وسوس لآدم بشكل معنوي كما جاء في حديث شريف عن وسوسة إبليس لبني آدم: "إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم".

لكن المُرجّح مِن أقوال العلماء ما أورده ابن مسعود وابن عباس أنّ الشيطان تحدّث معهما وجهًا لوجهٍ واستدلا بقوله تعالى: {وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ}، والقَسَم يكون شفهيًّا، فالمُرجّح أنّه دخلها ذليلًا مهانًا وحيدًا.

علي أي حالٍ أيًّا كانت طريقة دخوله الجنة فقد كان ذلك بعِلم الله تعالى، وأراد أن يختبر آدم، لكن سلطان وقوّة إقناع إبليس مع قَسَمه بالله وعدم تفكير آدم في إمكانية أن يقسم بالله كذبًا، وكذلك ضعف أبوَيْنا ورغبتهما في الخلود، كلّ ذلك أدّى إلى الخطيئة واتّبعها ما اتّبعها.

– أكل أبوانا مِن الشجرة فسقط عنهما ما يستر عوراتهما، كأنّ الذّنب كشف عنهما السّتر، فشَعَرَا بالذّعر وأخذا يُحاولان تغطية عوراتهما مِن ورق الجنة، وهربا يختبآن خلف شجر الجنة، فقال له الله تعالى: "أهربًا مني يا آدم"، فردّ أبونا بحياء: "بل حياءً منك يا ربي"، فجاء عتاب الله لهما: {أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ}.

شعر أبوانا بالاستحياء مِن ربّهما والحزن الشديد لمعصيته، لكنْ ردّ فعلهما التالي كان فارقًا فقد ندما على الذّنب بشدةٍ واستغفرا ربّهما فورًا

ورجياه أن يتوب عليهما: {قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}.

وهنا يكون الفرق بين معصية إبليس ومعصية آدم، فإبليس عصى واستكبر ورفض طاعة أمر الله تعالى وجادل ربّه وردّ إليه الأمر حين قال {أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا}، بينما عصى آدم نسيانًا وضعفًا واستغفر وعاد مُسرعًا إلى ربّه.

في النهاية جاء أمر الله تعالى: {قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}، وهكذا هبط أبوانا إلى الأرض ليعمراها وكان قد سبقهما إليها الشيطان، لتبدأ الرحلة الطويلة والمباراة الممتدة بين ذرّيّة آدم وإبليس.

hayahbook - حياة

-1-

آدم عليه السلام - الجزء (2)

عرف آدم أنَّه ودّع السَّلام حين خرج مِن الجنة، هاجر مع حواء مِن الجنة إلى الأرض، شعر بحزن شديد قاهر حين وطأت قدماه الأرض، وقارن بين ماضٍ قريب جدًّا عاشه في جنة الخُلد ومستقبل غامض في تلك الأرض التي أهبط فيها، ورغم ذلك فقد رضي بقضاء الله تعالى، وكان عليه استئناف حياته في دار الكد والتّعب.

عرف آدم أنّ عليه أن يحمي نفسه وزوجته وأطفاله مِن الحيوانات والوحوش الموجودة في الأرض والظروف القاسية المحيطة، ومِن ناحية أخرى يُواجه عدوّه اللدود، روح الشرّ العظمى، الشّيطان الذي تسبَّب في هبوطه مِن الجنة ونزل معه يترصَّده وذرّيته ليتسبَّب في إدخالهم إلى الجحيم.

- منذ نزوله شرع آدم في إعمار الأرض، وهو الهدف الذي خُلق مِن أجله، ساعدته في معيشته أُمّنا حوّاء، ولدت له ذرّيته، كانت تلد له في البطن ابنًا وبنتًا.

استنَّ آدم لبنيه الذين كبروا سُنَّة للزواج، فابن البطن الأولى يتزوَّج مِن ابنة البطن الثانية وهكذا، فلا يتزوَّج الابن أخته التوأم.

وبدا أنّ الأمور تسير بخير مع آدم وبنيه في الأرض، ولكن...

لكنَّه كان هناك، ماكثًا في الأرض يترصَّد آدم وذُرّيته وينتظر الفرصة للإغواء، ما كان له أبدًا أن يترك ذلك المخلوق البشري الذي تسبَّب في طرده مِن جنة الخُلد بعد أن كان طاووس الملائكة، وقد أقسم بعزَّة الله تعالى ليغوينّه وبنيه ويوردنّهم مورد التهلكة، ويبدو أنَّ الفرصة التي ينتظرها جاءت.

{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}.

لمح الشيطان بادرة التمرُّد عند قابيل ابن آدم، على حُكم أبيه، كان قابيل -كما أجمع أغلب المُفسّرين- يرغب في الزّواج مِن أخته التوأم التي كانت تحلّ لأخيه هابيل، رفض حُكم أبيه، وكان أنْ طلب منهما أن يُقرّبا قُربانًا لله تعالى وينصاعا لحكم الله.

وممَّا ورد في التفاسير أنّ هابيل الذي كان راعيًا، اختار أفضل حيواناته وقدَّمه قُربانًا لله، بينما قدَّم قابيل الذي كان مزارعًا، مِن محصوله الرديء.

وكان أنْ نزلت نار مِن السّماء فأكلت قربان هابيل وتقبَّل الله منه، واشتعلت نار الغيرة والحقد في قلب قابيل فتقدَّم مِن أخيه مُهدِّدًا.

{قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}.

أعمى الغضب قابيل وتملّكه الشيطان، وزاد مِن غضبه هدوء هابيل وثقته في الله، انصرف قابيل وقد أضمر في نفسه أمرًا.

مضت أيامٌ على الواقعة، لم تزِد قابيل إلا إصرارًا على ما قد أضمر مِن قبل، وذات يومٍ، هناك وسط الغابة كان الأخ الطّيب نائمًا في هدوءٍ، رآه الشرير، أدرك أنّ اللحظة حانت، اقترب منه، نظر حوله، على مرمى البصر كان يوجد رأس حمار نفق منذ زمن وبقيت عظام رأسه في الأرض، أمسكه قابيل بكلتا يديه وهوى بها على رأس أخيه النَّائم في الغابة، مرَّة ومرَّة ومرَّة، حتّى تحطَّم رأسه وانبثق الدّماء منه بغزارة، ومات هابيل الطّيب.

وفي خلفية المَشهد كان إبليس يقف مُبتسمًا بسخريةٍ مُستمتعًا بما يرى، راضيًا كلّ الرضا عمّا فعل قابيل، وقد كسب جولة في صراعه مع ذُرّية آدم.

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:

"لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا، إلَّا كانَ علَى ابْنِ آدَمَ الأوَّلِ كِفْلٌ مِن دَمِها، لأنَّهُ كانَ أوَّلَ مَن سَنَّ القَتْلَ".

– توقَّف قابيل ونظر بذهولٍ إلى جثّة أخيه المضرج في دمائه، وإلى يدَيْه الغارقتين في دماء أخيه الحرام، جلس ينتحب أمامه وقد أدرك جثامة خطئه وسوء فعله، تحامَل على نفسه وقام يحمل جثة أخيه ومضى بها في الغابة لا يعرف ماذا يفعل حتى رأى ذلك الغراب الذي يحفر في الأرض بمنقاره ليدفن جُثمان غراب ميت، فتعجَّب مِن قلَّة عقله وضعفه.

{فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ}.

– عَلِم آدم بما وقع بين ابنَيْه فتمزَّق قلبه حُزنًا وألمًا، لكنّه فهم: {قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ}.

لن يتركه الشيطان أبدًا هو وذُرّيته، كان عليه أن يُواصل حياته رغم كلّ شيء.

مضت السنوات وتكاثَر أبناء آدم وانتشرت ذُرّيته في الأرض تعمرها، لم يكُن أبونا الأوّل فقط أبو البشريّة لكنّه كان مُعلّمها الأوّل وكان أوّل أنبياء الله إلى ذُرّيته.

وورد عن رسول الله محمد صلّى الله عليه وسلم: "عندما سُئِلَ عن آدم أَنَبِيّ هو؟ قال: نعم نَبِيٌّ مُكَلَّمْ".

لم يكُن أبناء آدم كُفّارًا لكن كان دوره معهم أن يُعلِّمهم دين الله الحقّ وتعاليمه، والثَّابت أنّ نوحًا عليه السلام، هو أوّل رُسل الله إلى قومٍ كافرين.

– حانت الآن اللّحظة التي كتبها الله على كائن في الأرض وفي السّماوات، لحظة الحقّ اليقين، لحظة الموت.

ها هو أبونا الأوّل، وقد ظهر أثر السنوات والكد على ملامحه مُمدّدًا في فراشه، بلحيته البيضاء ووجهه الطّيب الشاحب، حوله وقف أبناؤه ينتظرون وصيّته، وتحدَّث آدم.

أوصى أبناءه باتّباع تعاليم الله تعالى وإقامة شرعه ودينه في الأرض وعدم اتّباع خطوات الشيطان، وطمأنهم أنّ الله لن يتركهم على الأرض ونسلهم دون هُدى، لكنّه سوف يُرسل إليهم الأنبياء والرّسل لهدايتهم وإنقاذهم مِن الضّلال.

أغمض آدم عينيه ودخلت الملائكة إلى حُجرته وتعرّف فيهم على مَلك الموت، ابتسم للسلام العميق، وهبّت على روحه نسائم أزهار الجنة.

hayahbook - حياة

-2-

نوح عليه السلام

مات آدم عليه السلام، واتّبع أبناؤه وصيّته بعبادة الله تعالى ربّه وخالقه وربّ البشر والكون كله.

تعاقبت أجيال متتابعة، عاش في أحدها خمسة رجال صالحين هم: وَدّ وسُوَاع ويَغُوث ويَعُوق ونَسْر، كان الناس يُحبُّونهم بشدّة فصنعوا لهم تماثيل حجرية للذّكرى، مات هذا الجيل ومن خلفه وعبث الشيطان بالعقول والعقائد ونُسجت الأساطير الخرافيّة حول التماثيل، أوهم إبليس البشر أنّ تلك التماثيل آلهة تملك لهم النّفع والضّرر، وانتهى الأمر بعبادتهم لها دون الخالق عزّ وجل.

وظهر الشّرك والكفر في الأرض بالله تعالى لأوّل مرة في تاريخ البشر القصير على هذا الكوكب، وأصبح إبليس سيّد الموقف حقًّا.

في تلك الأجواء ظهر نوح عليه السلام، وبعثه الله برسالته، لم يكُن نوحٌ سيّد قومه ولا أغناهم ولا أقواهم، لكنّه كان أذكاهم وأكثرهم عقلًا وحكمة وأطهرهم قلبًا وفطرة.

وبدأ نوح دعوته لقومه بقوله:

{يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}.

وضعهم أمام حقيقة الأولوهية وحقيقة البعث، ونبّههم إلى خدعة الشيطان لهم، وحذَّرهم مِن عذاب الله يوم القيامة.

كان كلامه هزّةً لهم مِن الأعماق وتنبيهًا لغفلتهم، ولمست الدّعوة قلوب الفقراء والضعفاء والمظلومين منهم ومالوا لها، بينما، وكعادة البشر، استنكر الأمر الأثرياء والأكابر مِن القوم والذين خشوا أن تُزلزل دعوة نوح الأرض تحت أقدامهم وتُغيّر الأوضاع، فقالوا له:

{فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ}.

طعنوا في دعوته بأنّه بشر مثلهم وليس بخيرهم فلماذا يُفضّله الله عليهم، وذمّوه بأنّ أتباعه هُم أراذلهم وأضعف وأفقر مَن فيهم، وجادلهم نوح بما أتاه الله تعالى مِن بصيرةٍ وحكمةٍ ومنطقٍ، وظلّ يردّ على كلّ تساؤلٍ أو شكّ منهم تجاهه وتجاه دعوته، أوضح لهم أنّهم قومه وأنّه يخاف عليهم مِن عذاب الله، ويريد أن يُجنّبهم غواية الشيطان وعبادة الأصنام، وأوضح

لهم نوح أنّه لا يريد منهم منصبًا ولا مالًا ولا أي مقابلٍ إنّما أجره على الله.

ومرَّت الأيام والشّهور والسنوات بل والقرون ونوح يدعوهم، لم يكلّ الرّجل ولم يملّ، تسعمائة وخمسون عامًا يدعوهم إلى عبادة الله ويُجادلهم ويُظهر لهم قدرة الله تعالى في خَلْقه ويشرح لهم الآيات.

دعاهم ليلًا ونهارًا وسرًّا وجهرًا، فأصبحوا يضعون أصابعهم في آذانهم ويستغشون ثيابهم حتى لا يستمعوا له، تسعمائة وخمسون عامًا ونوح لا يتردَّد عن تنفيذ أمر ربه بدعوتهم، الحقّ أنّ نوحًا عليه السلام مِن أعظم أبناء آدم على الإطلاق حتى يوم القيامة.

أخيرًا.. أخيرًا.. أخيرًا..

وبعد يأسه منهم تمامًا جاءت دعوة نوح على هؤلاء الكافرين بالهلاك:

{وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا}.

فجاء وحي الله تعالى لنوحٍ:

{وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}.

ثمّ جاء أمر الله لعبده نوح:

{وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ}.

وبدأ نوح عمله النهائي بصناعة سفينة عظيمة الطّول والعرض والقوّة مُتعدّدة الطّبقات، اختلف المُفسّرون في حجمها لكنَّهم أجمعوا على ضخامتها وعظمتها، ولم يتركه الكافرون في حاله، كان نوح يصنع الفلك في صحراء لا نهر بها ولا بحر، فكان كُلّما مرّ به ملأ مِن قومه سخروا منه واستهزؤا بما يفعل.

{وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ}.

انتهى صُنع السّفينة وانتظر نوحٌ أمرَ ربه، وأخيرًا جاء اليوم الرّهيب، وهبط جبريل عليه السلام إلى الأرض، حمل إلى نوحٍ مِن كلّ حيوان وطير ووحش زوجين اثنين، وكان نوح صنع لها أقفاصًا في السفينة، وصعد المؤمنون بنوحٍ معه إلى السّفينة، ولم تكُن زوجته مُؤمنةً به فلم

تصعد معه، وكان أحد أبنائه يُخفي كُفرًا ويُظهر إيمانًا فرفض أن يركب معه.

انفجرت المياه مِن الأرض وفاضت البحار والمحيطات وانهمرت مِن السماء بغزارة رهيبة وغرقت الأرض كلها، وأصبحت السفينة تجري في موجٍ هائلٍ كالجبال.

نادى نوح ابنه الذي ظنّه مُؤمنًا به:

{وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ}.

فما كان مِن الابن الكافر إلا أن استكبر قائلًا:

{قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ}.

فردَّ عليه والده النبي الكريم:

{قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ}.

ولمّا رأى الكافرون عذاب الله ندموا في وقتٍ لا ينفع فيه الندم، أغرقتهم المياه واستجاب الله تعالى لدعوة نوح عليه السلام، ولم يدع على الأرض مِن الكافرين ديارًا.

استمرّ الطّوفان وقتًا لا نعلمه حتى طهَّر الأرض مِن الكافرين تمامًا وجاء أمر الله:

{وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}.

استوت سفينة نوح على الجودي، وورد أنّه جبل في العراق، ونزل نوح ومَن فيها مِن المؤمنين وما حمل فيها مِن الكائنات الأخرى وبدأت عمارة الأرض مِن جديد، وبدأت خلافة الإنسان فيها مع أبو البشرية الثاني نوح عليه السلام.

hayahbook - حياة

-3-

هودٌ عليه السلام

هبطت سفينة نوح، عليه السلام، على الجودي، وعادت الأرض نظيفة مِن أي أثرٍ للكفر أو للشرك بالله تعالى، ونزل نوح وقومه المؤمنون عليها ليعمروها ويُقيموا دين الله تعالى الواحد الأحد الخالق المُتفرّد بالعبادة.

وظلّ الشيطان المُتربّص بذُرِّية آدم عليه السلام، ينتظر أي فرصةٍ أخرى لإغواء البشر، ومضى جيل وراء جيل وعاد إبليس يلعب لعبته المُكرّرة مع أحفاد نوح وقومه.

- لماذا لا تُقيمون التماثيل لأجدادكم الأوائل لتخليد ذِكراهم؟

وأُقيمت التماثيل ومضى هذا الجيل وجاء مِن بعده جيل.

- لماذا لا تتبرَّكون بهذه التماثيل التي تُمثِّل أجدادكم الذين ركبوا السّفينة مع نوحٍ عليه السلام؟ لقد كانوا مُؤمنين بالله والله يُحبّهم، وهكذا سار الأمر بالتدريج.

إقامة تماثيل، تكريمها، تقديسها ثمّ عبادتها على أنّها آلهة، وهذا ما وصل إليه قوم عاد.

قيل إنّ نَسب القبيلة يعود إلى جَدّهم عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام. سكنوا الأحقاف، منطقة صحراوية في جنوب شبه الجزيرة العربية بين حضرموت وعمان.

كانوا قومًا ضخام الجثة، أقوياء البنيان، ليس في مثلهم بشر في أحجامهم وقوّتهم في زمانهم، اغترّوا بقوّتهم حتى قالوا:

{مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً}.

كان قوم عاد يسكنون خيامًا بالغة الضخامة تحملها أعمدة ضخمة قويّة عالية جدًّا، وأرضهم كانت جنات وحدائق غناء، تُمطرهم السّماء بغزارة فينبت زرعهم وأشجارهم وتُروى حيواناتهم.

ورغم ذلك فقد كانت عقولهم مُظلمة، كانوا عبدة أوثان، يعبدون أصنامًا منحوتة مِن حجارة، وكانوا لآلهتهم تلك مُتعصّبين حتى أرسل لهم الله أخاهم نبيًّا لهدايتهم، كان هذا هو نبيّ الله هودًا عليه السلام

{وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}.

وبدأ هود دعوته لقومه، وكعادة البشر جرت الأمور، الاستنكار ثمّ الشك ثمّ المساومة.

– هل تريد يا هود مُلكًا أو جاهًا أو سُلطانًا أو مالًا؟

لكنّ هودًا كان عن كلّ ذلك بعيدًا، وما كان يُريد إلا هدايتهم إلى الطّريق الصّحيح وتبليغ رسالة ربّه لهم.

رأى القوم إصرار هود على دعوته باللّين وبالحُسنى وبالمنطق وبالعقل فلجأوا إلى مجادلته، كيف تريد منّا أن نترك آلهتنا التي وجدنا آباءنا لها عابدين؟!

– إنّ آباءكم كانوا مُخطئين.

– إنْ أنت إلا بشر مثلنا يا هود تطعم وتسقى كما نفعل، فكيف نتّبعك ونترك آلهتنا؟

ثمّ أنت تدّعي يا هود أننا بعد أن نموت ونصير ترابًا يُعيدنا ربك إلى الحياة، ما هذا الذي تقول يا رجل؟!

هل جُننت؟

إنّ هي إلا حياتنا الدّنيا نحياها ثمّ نموت، وينتهي الأمر بنا ترابًا متطايرًا في الهواء.

هَيْهَات هَيْهَات لما تعِدُنا يا هود.

{وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآَخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (33) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (34) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (35) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (36) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ}.

لكنْ هود نبيّ أرسله الله إلى قومه، لم ييأس أبدًا وظلّ يدعوهم ويُجادلهم ويُناقشهم ويُذكّرهم بآلاء الله عليهم.

ضاق الملأ مِن قوم هود به ذرعًا، والملأ هُم أكابر القوم وسادتهم، وبدعوته، كما أقلقهم عناده وإصراره عليها، وخشوا مِن ميل القلوب وتغيّر الأوضاع، فاتّهموه بالجنون بل وظنّوا أنّهم يقلبون الطاولة عليه عندما أشاعوا أنّ الآلهة غضبت على هود فأصابه مسّ مِن الجنون.

{إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ}.

وهكذا أعلن هود براءته إلى الله تعالى مِن كفرهم، وأدرك أنّ العذاب واقع لا محالة، وبدأت أَمَارَاته بالفعل.

انقطع المطر عن النزول مِن السماء وجدبت الأرض ومات الزّرع، وأصبحت أرضهم صحراء قاحلة، وأصابهم الجفاف والقحط.

هرع القوم إلى هود عليه السلام، يسألونه عمّا يحدث، أخبرهم النّبي الكريم بغضب الله عليهم وعقابه لهم، لكنّه لم ييأسهم من رحمة الله، بل طلب منهم أن يتركوا الأصنام ويعبدوا الله وحده القادر على رفع البلاء عنهم، فما كان منهم إلا أن سخروا منه مرّة أخرى وزادوا عنادًا وكفرًا، وتركوا هودًا دون أن يستجيبوا له.

شعر هود عليه السلام، بالألم والحزن عليهم وأدرك أنّ أمر الله لا رادّ له أبدًا.

- ظلّت الأمور تسوء أكثر فأكثر وبات القوم بلا قطرة ماء تروي أرضًا ولا ظمأ، حتى جاء يوم، نظروا إلى السماء وتهللت أساريريهم واعترتهم فرحة غامرة، لقد جاء الفرج على هيئة سحاب عظيم يملأ السماء فوقهم.

{فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا}.

ظنّوا أنّ السّماء سوف تُمطر وتعود الحياة كما كانت، لكن ما حدث أنّ الجو انقلب فجأة وتحوَّل مِن الحر الشديد إلى البرد القارس، هبّت الرياح عنيفة مريعة غاضبة كما لم يرَها قوم هود مِن قبل، اقتلعت الخيام

والأشجار والنباتات وأطاحت بهم، حاولوا أن يستتروا منها بأي سترٍ لكنها لم تكُن رياحًا عادية.

{ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (24) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ}.

كانت الرّياح تمزّق كل شيءٍ في وجهها، بما فيه أجسادهم وتُزهق أرواحهم وهم ذاهلون لِمَا يحدث، لم تكُن مسألة ساعات، لكن...

{سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ}.

سبع ليالٍ وثمانية أيامٍ لم تشهد الأرض مثلها أبدًا مِن قبل، انتهى الأمر بجبابرة قوم هود كأعجاز نخلٍ خاويةٍ، ونجَّا الله تعالى هودًا ومَن آمنوا معه برحمته، وأهلك القوم الكافرين.

-4-

صالح عليه السلام

هلك قوم عاد، أهلكهم الله تعالى على نحو ما علمنا، ونجَّا هودًا عليه السلام والذين آمنوا معه، ثمّ استخلف من بعدهم قومًا آخرين في الأرض وهم ثمود.

وَرَدَ أنّ تلك القبيلة سُمِّيت باسم جَدّهم الأكبر؛ ثمود الذي وَرَدَ أن نَسَبه يرجع إلى عابر بن إرم ابن سام ابن نوح عليه السلام.

- سكنت ثمود الحِجْر، وهي المنطقة الواقعة بين تبوك والحجاز وكانوا عربًا عاربة، وصل مِن قوَّتهم أن قال عنهم القرآن الكريم:

{وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا}.

كانوا ينحتون بيوتهم في الجبال، بالطّبع يحتاج الأمر إلى قوّةٍ خارقةٍ حتّى يفعلوا ذلك بمقاييس هذا الزّمان، كما كانت مُدنهم ثريّة جميلة ذات حدائق وجنان وقصور، إلا أنّ آفتهم كانت كالذين سبقوهم مِن قوم نوح وعاد، يعبدون الأصنام دون الله تعالى.

سيطر إبليس الرّجيم على عقولهم وقادهم كالأنعام، وجعلهم يسجدون لأصنام صُنعت مِن حجارة، لا تضرّ ولا تنفع.

كان مِن بين هؤلاء القوم رجل عُرف بعقله وحكمته، لم يكُن عابدًا للأصنام أبدًا مثلهم، ورغم ذلك كانوا يحترمونه ويُقدّرونه، هذا الرّجل هو صالح عليه السلام.

أخوهم مِن نسبهم لكنّه كان يختلف عنهم، كان رجلًا حكيمًا نقي الفطرة مُحبًّا للخير حتى قالوا عنه:

{يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا}.

كان صالح مُرجوًّا في قومه، يذهبون إليه ويستشيرونه ويقدّرون حكمته وعدله حتى جاءه وحي الله تعالى بالنبوّة وكُلّف بدعوة قومه إلى ترك عبادة الأصنام وعبادة الله تعالى الخالق الأوحد.

وبدأ صالح دعوته لقومه بالحسنى وبالعقل وبالمنطق أيضًا بدأ دعوته، ذكّرهم بنِعم الله عليهم، مِن تلك القصور المُقامة في السهول إلى البيوت الضخمة التي تُنحت في الجبال إلى الحدائق الغناء التي تنتشر في مدينتهم:

{أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آَمِنِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ}.

وطلب منهم عبادة الله تعالى وترك الأصنام، هنا آمن به بعضهم، ذوو العقول السليمة، الذين تنبّهوا لما ذكرهم به وهُم يعلمون صلاحه وحُسن خلقه، أمّا الباقون فقد ردّوا عليه:

{أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ}.

بنفس الهدوء والمنطق ردّ عليهم صالح عليه السلام:

{قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ}.

– جادلهم صالح عليه السّلام، وردّ عليهم حجة بحجة ومنطقًا بمنطق، وكانت حجّتهم الكبرى أنّهم قالوا:

{مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا}.

هل تُريد منَّا يا صالح أنْ نُؤمن لك وأنت واحد منَّا نعرفك، فلماذا يختارك الله مِن بيننا، لو كنت يا صالح صادقًا؟

{فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}.

وكان ردّ صالح عليهم: أنْ هل لو جئتكم بآيةٍ بيّنةٍ مِن الله تُؤمنوا لي؟ إذًا فانظروا إلى تلك الصخرة العظيمة هناك، ونظر قوم صالح إلى حيث أشار، فأصابهم ذهول لِمَا رأوا...

{هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً}.

ناقة عظيمة، تتفتّق عنها الصخور وتخرج إليهم، نظر إليهم صالح عليه السّلام وقال:

{... هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ}.

خرجت لهم النّاقة مِن قلب صخرة، معجزة مِن الله تعالى بلا أب ولا أم.

نبَّأهم صالح بأمر الله لهم أنّ الماء قِسمة بينهم وبينها، وأن يذروها تأكل في أرض الله ولا يمسّوها بسوءٍ وإلا أصابهم عذاب عظيم، وكان صالح فهم ما سيفعل الكافرون مِن قومه.

كانت تلك هي معجزة صالح، لم يكُن خروج الناقة فقط هو الإعجاز لكن النّاقة في حدّ ذاتها كانت معجزة، فقد وَرَدَ أنّها كانت تشرب مياه البئر في يومٍ وحدها فلا يقربها حيوان آخر.

ولقد رأت ثمود الإعجاز الذي لا يقدر عليه إلا خالق الكون في تلك الناقة، فكانت تدرّ عليهم لبنًا يكفي آلاف الأشخاص، فكانت مصدر رزق إلهي مبارك وبلا أي مقابلٍ، لم يطلب منهم صالح عليه السلام إلا أنْ يُؤمنوا بربّ النّاقة وربّهم وربّ آبائهم الأوّلين.

كانت معجزة النّاقة سببًا في إيمان ثُلة أخرى مِن قوم ثمود، لكن الغريب حقًّا بعد تلك المعجزة غير المسبوقة أن يظلّ كثيرٌ منهم كافرين، إلا أنّ هناك فئة مِن البشر قال فيهم الله تعالى أن لا يُؤمنوا...

{وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ}.

كانت تلك الفئة مِن ثمود التي ظلّت على كُفرها وعنادها وكذّبت صالح عليه السلام بعد أن رأت الآية المبيّنة.

الغريب أنّ كُرههم لصالح تحوَّل إلى ناقة الله..

كمن في قلوبهم كره وحقد وغل على تلك الآية العظيمة وبدأت المؤامرات تُحاك في الخفاء حول صالح وناقته.

وذات ليلة سوداء كقلوب الذين كفروا، عُقد الاجتماع في بيت أحد ملأ ثمود الكافرين وجرت التساؤلات:

{أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ}.

{أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ}.

– لقد أصبحنا نتشاءم ونتطيّر بصالح، وبأولئك الضّعفاء الذين آمنوا معه، وبتلك النّاقة التي تُقاسِم حيواناتنا المأكل والمَشرب وتُضيّق عليها.

– إذًا فما الحل؟

– نقتل صالحًا.

– بل نقتل النّاقة أوّلًا ثمّ نقتل صالحًا.

– لكن مَن يفعل؟

– أعرف واحدًا يستطيع أنْ يفعل.

كان ذلك جبّارًا مِن جبابرة المدينة، يشرب الخمر حتّى يثمل ثمّ يعيث في الأرض فسادًا، والويْل لمَن اعترض طريقه.

(وَرَدَ أن اسمه: قدار بن سالف بن جندع).

– إنّ النّاقة عظيمة ولا نريد للأمر أن يفشل فمَن يُساعده؟

– إنّ له رفاقًا مثله يُساعدونه.

{وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ}.

واتّفق التّسعة على قتل النّاقة وتجمّعوا في وقت حددوه، أعدّوا أسلحتهم وتعاطى كبيرهم الخمر فذهب عقله، واقترب مِن النّاقة فطعنها بسيفه وتوالت الطّعنات حتى قُتلت ناقة الله.

– عَلِم صالح عليه السلام بالأمر، فخرج إليهم وقد عَلِم أنّ قدر الله نافذ لا محالة، كان حزينًا على مصير قومه، غاضبًا مِن كُفرهم وعصيانهم

أوامر الله تعالى وقتلهم ناقته، تحدَّث إليهم مُعاتبًا مُستنكرًا فعلهم الشّنيع، فردّوا عليه بكلّ كفرٍ وجحودٍ:

{يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}.

هنا ردّ عليهم النّبي بجملةٍ واحدةٍ، لو كانت لهم عقول يفقهون بها لزهقت أرواحهم خوفًا وخشية ممّا ينتظرهم.

{فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ}.

حدَّد لهم صالح عليه السلام، المدّة المُتبقّية لهم في الحياة الدنيا قبل أن يطالهم العقاب السّاحق مِن الله تعالى، ومضى هو ومن آمن معه وتركهم.

- مضت الأيام الثلاثة، والقوم الكافرون يسخرون ويفكهون مِن وعد صالح لهم وينتظرون العذاب الذي وعدهم.

وجاء فجر اليوم الرابع.

كان يومًا يُذْكَر في تاريخ الأرض كيوم طوفان نوح عليه السلام، ويوم رياح قوم عادٍ، إلا أنّ الأمر تلك المرّة كان مختلفًا، انشقَّت السماء عن صيحة مهولة، مُزلزلة، صارعة، صيحة ارتجّت لها جبال ومدن قوم ثمود، صيحة واحدة أزهقت أرواحهم وأرواح كل كائنٍ حي في مدنهم.

{إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ}.

وكانت النتيجة:

{فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}.

وتخلَّصت الأرض مِن قوم ثمود الكافرين.

حياة
hayahbook - حياة

-5-

إبراهيم عليه السّلام

هو خليل الرّحمن، وهو أبو كلّ الأنبياء التّاليين له، وهو أصل الإسلام، ومِن نسله جاءت الديانات الإبراهيمية الثلاث.

هو رجل بأُمّة، هو إبراهيم النبي عليه الصّلاة والسّلام.

مَن يبحث في تاريخ إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، يندهش حقًّا مِن كمّ التّكريمات التي أسبغها الله تعالى عليه، انظرْ بعض الآيات القرآنية التي ذَكَرَت فضل إبراهيم ومقداره عند الله تعالى.

فقد شهد له الله سبحانه وتعالى بأنّه:

{إِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى}.

كما أوضح قدره عند ربّه قائلًا:

{وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إبراهيم إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}.

وشهد له ربّه تعالى بأعلى درجات الإيمان بالله تعالى:

{إِنَّ إبراهيم كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}.

كما شهد له الله تعالى بالحلم:

{إِنَّ إبراهيم لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ}.

- وجاء في حقّه التكريم الذي لم ينَلْه بشري مِن قبل ولا حتّى نبي، حين قال عنه تعالى:

{وَاتَّخَذَ اللَّهُ إبراهيم خَلِيلًا}.

وآيات أخرى كثيرة وَرَدَت في القرآن الكريم تُبيِّن فضل النبي إبراهيم.

فمَن هو إبراهيم عليه السّلام؟

الحقّ أنّ آزر كان يشغل مكانة مرموقة بين قومه، لقد كان الرّجل صانع تماثيل بارعًا في صناعته، يصنع للقوم تماثيل آلهتهم ببراعةٍ منقطعة النّظير، وهذا ما جعله وأسرته في مكانة عالية مادية واجتماعيًّا في مجتمع عابد للأصنام، في هذه الأسرة وُلد طفل قُدّر له أن يُغيّر كلّ المجتمع في ما بعدُ، إبراهيم.

ابن أخي آزر الذي مات فربّاه عمّه آزر وكان يُناديه بأبي آزر، أو أنّه ابن آزر نفسه صانع التّماثيل.

كان إبراهيم منذ طفولته نقي الفطرة فلم يعبد أبدًا أصنام قومه، وكان يندهش ويستنكر أن يعبد قومه تلك الأصنام الحجارة التي يصنعها أبوه.

شبَّ إبراهيم وعقله يرفض تمامًا فكرة كون تلك الأصنام هي آلهة تخلق وتضرّ، وتنفع الإنسان الذي يصنعها أصلًا.

– لكن ما كان يُعذّبه فكرة هل كل قومه على باطلٍ وهو وحده على حقّ في كُرهه وازدرائه لتلك الآلهة؟

– اضطربت الأفكار في عقل الفتى، كان يذهب مع أبيه إلى المعبد وهناك يرى الناس وهم خاشغون يتضرّعون ويُقدِّمون قرابينهم إلى أصنام آلهة حجريّة وخشبيّة لا حول لها ولا قوّة، كان يشعر بالكره والاحتقار لتلك الأصنام الحقيرة التي لا تسمعهم ولا تراهم ولا تضرّهم ولا تنفعهم.

قرّر إبراهيم أن يبحث بنفسه عن الإله الحقيقي خالق الكون.

خرج ذات ليلة والناس نيام، صعد إلى كهفٍ في الجبل ووقف يتأمّل السماء والنجوم والقمر، ويتفكَّر في خلق السماوات والأرض، يبحث عن خالقها الحقيقي، وقد اهتدى بعقله إلى أنّ خالق هذا الكون أمير وأعظم مِن كلّ تلك الآلهة التي يعبدها قومه.

قرَّر إبراهيم عليه السلام شيئًا ما، رأى كوكبًا مضيئًا عظيمًا، فقال: هذا ربي، وأعلن الخبر بين قومه، لم يعترضوا عليه لأنّ العبادات في ذلك الزمان كانت بين ثلاث: عبادة الأصنام، عبادة النجوم، وعبادة الملوك،

إلا أنّ ذلك الكوكب قد أفل، فأعلن إبراهيم أنّه ليس بربّه فلا يُمكن أن يأفل ربّ الكون.

ثمّ رأى القمر مضيئًا رائعًا، فقال: هذا ربي، وأعلن هذا لقومه، وفي الصباح اختفى القمر، فرفض كونه ربًّا له أو لغيره، وتكرَّر نفس الأمر مع الشمس، وكأنّ إبراهيم عليه السلام الذكي الفطري، أراد أن يدحض بالمنطق عبادة النجوم والكواكب والقمر والشمس أمام قومه ويُظهر بطلانها، في النهاية أعلنها صريحة أمامهم:

{قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}.

أفزعت حجة إبراهيم عبدة الكواكب وزلزلت عقيدتهم وأدركوا خطأ ما يعتقدون، لكنّهم ظلّوا على شركهم بل وهدَّدوا إبراهيم عليه السلام وتوعّدوه، لكن إبراهيم عليه السّلام لم يأبه بهم واستعدّ لمعركته الكبرى مع فئة أخرى من قومه، أكثر وأخطر، وهي...

عبدة الأصنام...

ومُنهم أبوه آزر، صانع الأصنام.

كان إبراهيم عليه السلام، قوي المنطق حاسمًا في الحقّ فاختار المواجهة، خرج على قومه ذات يومٍ يستنكر ما يعبدون ودار بينهم هذا الحوار:

{إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ}.

{قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ}.

{قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}.

{قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ}.

{قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ}.

ذهب القوم مِن كلام إبراهيم وجرأته على آلهتهم، لكن أكثرهم دهشة وغضبًا كان آزر والده.

اشتبك آزر مع إبراهيم عليه السلام، في حوار غاضب مِن طرف آزر، ليّن هيّن هادئ مِن قِبل إبراهيم عليه السلام، وجاء تهديد آزر لإبراهيم عليه السّلام:

{قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إبراهيم ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا}.

فكان ردّ إبراهيم على أبيه:

{قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۖ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا}.

خرج إبراهيم عليه السلام، مِن بيت أبيه وقد قرّر أمرًا، بعد أيام كان هناك احتفال كبير خرج الناس إليه وخلت المدينة منهم، ذهب إبراهيم إلى المعبد الكبير الذي توجد فيه كلّ أصنامهم، كان الناس يضعون أمام الأصنام مختلف أنواع القرابين والأطعمة، تقدَّم منهم يتساءل بسخريةٍ:

{أَلَا تَأْكُلُونَ}.

{مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ}.

ثمّ أمسك الفأس وحطَّم بها الآلهة جميعًا، وترك أحدها ووضع الفأس في عنقه.

– عندما عاد البعض إلى المعبد شعروا بالفزع والذّهول لمّا رأوا آلهتهم قد تحطّمت، وبدأ التحقيق والبحث عمّن فعل ذلك، على الفور تذكّر بعضهم إبراهيم عليه السلام، وعداوته لتلك الأصنام ودعوته لترك عبادتها.

وأحضر الحاكمُ إبراهيم عليه السلام، وأمام المحكمة المُكوّنة مِن كهنة المعبد وحاكم المدينة، سألوا إبراهيم عن تحطيم الأصنام، فقال لهم ساخرًا:

{بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ}.

نظروا إلى بعضهم البعض ونكست رؤوسهم وردّوا عليه:

– أنت تعلم يا إبراهيم أنّهم لا ينطقون.

فردّ عليهم إبراهيم عليه السلام:

{قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ}.

نسف إبراهيم دياناتهم مِن الأساس بكلمات بسيطة، شعر الكهنة بغضبٍ شديدٍ وقد ملأ قلوبهم الحقد على إبراهيم عليه السلام، كابروا وعاندوا في الحقّ وجاء حُكم المحكمة.

{حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ}.

وهكذا صدر الحُكم على إبراهيم عليه السلام، الموت حرقًا.

انتشر الخبر كالنّار في الهشيم في أنحاء المملكة، هل تعرفون الفتى الذي حطّم أصنام الآلهة؟

لقد تقرَّر عقابه بالحرق حتى الموت.

واجتمع النّاس مِن كلّ مكانٍ لمُشاهدة ذلك المَشهد النادر، حفروا حفرة ضخمة وملؤوها بالأخشاب والحطب وأشعلوا فيها النار، أمّا إبراهيم عليه

السلام، فقد قيّدوه ووضعوه في منجنيق وأُلقي في وسط الحفرة المُشتعلة التي وصلت ألسنة اللهب فيها إلى عنان السّماء.

وجاء الأمر الإلهي للنار:

{قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ}.

ظلّ الناس وقتًا طويلًا يُشاهدون النّار التي بدى أنّها لن تنطفئ مِن شدّتها، وأخيرًا وأخيرًا، هدأت النّار والكلّ ينظر إليها وقد أدركوا حتميّة احتراق إبراهيم وتطايُر خلاياه في الهواء، لكن.

أمام العيون الذّاهلة غير المصدِّقة، خرج إبراهيم عليه السلام مِن قلب حفرة النار، خرج بثيابه في كامل صحّته يبتسم لهم كأنَّه قادم من حديقة غناء.

كانت معجزة غير مسبوقةٍ لا تخضع لأي مقاييس بشرية أبدًا لكنّها تخضع فقط لمقاييس إله الكون الذي إن أراد شيئًا قال له: "كُنْ فيكون".

لا يُعرف على وجه الدّقة كم كان عُمر إبراهيم وقتها، ولا كم كان عُمره حين أُوحي له بالرسالة، لكن يتّضح مِن آيات القرآن الكريم أنّ إبراهيم وقتها كان فتى، والفتى هو مَن لم يتجاوز العشرين مِن عمره وقد حطّم إبراهيم الأصنام قبل أن تأتيه الرّسالة.

– جاء جبريلُ لإبراهيم عليه السلام، فارتاع إبراهيم وخاف منه فهدَّأه جبريل وبشّره أنّ الله اختاره خليلًا له حين واجه الكفر وحطَّم الأصنام.

سأله إبراهيم عليه السلام، كيف يعبد الله تعالى؟ طلب منه جبريل أن يذهب إلى ينبوع مياه معيّن فيغستل، ثمّ يصعد الجبل فيكلّمه الله تعالى.

صعد إبراهيم الجبل وانتظر وقتًا حتى سمع صوتًا يُناديه:

– أنا إلهك يا إبراهيم.

ارتاع إبراهيم وسجد على الأرض خائفًا، فأخبره الله تعالى أنّه اصطفاه وقرّبه وباركه هو ومن يتّبعه.

{إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}.

وذكر أنّ هذا هو الوقت الذي تمّ تكليف إبراهيم عليه السلام بالرسالة.

كما سبق أن قلنا إنّه في زمن إبراهيم كان هناك ثلاث ديانات، الأولى كانت عبادة الكواكب والشمس والنجوم، وبدأ إبراهيم بها وأقام الحُجّة على أتباعها.

والثانية كانت عبادة الأصنام التي حطّمها إبراهيم وأنجاه الله تعالى بمعجزةٍ مِن نيران كهنة الأصنام، والآن لم تتبقَّ إلا ديانة واحدة للكافرين

ربما كانت الأخطر والأصعب التي كان على إبراهيم مواجهتها وتلك هي عبادة...

الملوك.

يرفع الستار عن مَشهد جدال إبراهيم مع مَلِك نصَّب نفسه إلهًا للناس، يعبدونه مِن دون الله تعالى.

وَرَدَ في بعض المصادر أنّ هذا المَلك هو النّمرود، مِن المحتمل أنّ هذا الملك قد سمع عن معجزة إبراهيم عليه السلام، فاستدعاه إليه ووقع الجدال بينهما.

– سمعت أنّك تدعو إلى إلهٍ جديدٍ يا إبراهيم، ما الذي يستطيع هذا الإله أن يفعله.

– ربّي يُحيي ويُميت.

– أنا أستطيع أن أُحيي وأُميت، الآن آتيك برجلٍ مِن الطريق فأقتله فقد أمته، وأُخرج محكومًا بالإعدام مِن السجن فأعفو عنه فقد أحييته.

ابتسم إبراهيم عليه السلام، مِن سذاجة منطق الملك مُدّعي الألوهية، وبهدوء ردّ عليه قائلًا: فإنّ الله ربي يأتي بالشّمس مِن المشرق فأتِ بها أنت مِن المغرب لو كنت إلهًا كما تدَّعي!

بهت الرجل، فَقَدَ الحجّة والنطق ولم يعُد عنده ما يردّ به على إبراهيم عليه السلام.

كان حوارًا طويلًا جرى بين إبراهيم والملك لخّصه القرآن الكريم في كلمات قليلة كافية وافية.

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إبراهيم فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إبراهيم رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إبراهيم فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}.

– خرج إبراهيم مِن قصر الملك مُدّعي الألوهية وتركه في ذهوله بعد أن أقام عليه الحجّة وعرّفه قدر نفسه.

عاد إلى قومه يدعوهم لعبادة الله تعالى خالق الكون، دون النجوم والكواكب والأصنام والملوك، كانت شهرة إبراهيم ومعجزاته انتشرت في أنحاء المملكة كلها ورغم ذلك، ومع كل تلك المجادلات والحجج والمواجهات مع الكفر لم يُؤمن لإبراهيم عليه السلام، إلا رجل واحد، ابن أخيه لوط النبي عليه السّلام، وامرأة واحدة، زوجته سارة عليها السلام.

عاد إبراهيم ليدعو أباه آزر إلى الإيمان بالله تعالى وترك صناعة الأصنام وعبادتها، كان مُشفقًا عليه مِن ضلال السعي ومِن سوء العذاب يوم القيامة، إلا أنّ آزر كان كافرًا حتى النّخاع، لم يكُن في قلبه ذَرّة إيمان بالله يُمكن لإبراهيم أن يُحرّكها، كان إبراهيم استغفر له ربّه مِن قبل، لكنّه لمَّا تبيَّن كفره وعداوته لله تبرَّأ مِن أفعاله وممَّا يعبد.

{وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إبراهيم لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إبراهيم لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ}.

وبدأ إبراهيم عليه السلام، رحلته التي استمرَّت عشرات السنوات ضاربًا في الأرض مِن أجل نشر دين الله الحنيف.

خرج إبراهيم عليه السلام مِن بلده مُهاجرًا، سافر إلى مدينة أور، ثمّ إلى مدينة حاران، ثمّ رحل إلى فلسطين ومن فلسطين رحل إلى مصر.

خلال هذه الرحلات كانت بصحبته زوجته السّيدة سارة عليها السلام، وابن أخيه لوط النبي عليه السلام.

سنوات طويلة مرّت على إبراهيم عليه السلام، يهاجر في الأرض داعيًا الأقوام والشعوب إلى عبادة الله الواحد الأحد.

سنوات طويلة جدًّا.

تغيَّر معها الفتى إبراهيم المليء بالطموح والإقدام لتغيير عقيدة الكفر وإحلال عبادة الخالق عز وجل، في الأرض، وأصبح الشيخ إبراهيم أبيض الشعر الوقور، لكنّ طموحه وإصراره لم يتغيّرا أبدًا.

– كان كلّ موقف في حياة إبراهيم وكلّ رحلة يقوم بها يُزيدانه إيمانًا ووقارًا وثقة في الله تعالى.

كان إبراهيم عليه السلام، مِن أصحاب العقول المنيرة التي تريد أن تعلم كل شيء، ذات يوم فكَّر كثيرًا في أمرٍ ما، أراد أن يعرف كيف سيُحيي ربّه الموتى يوم القيامة، فسأله:

{رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي}.

– الله تعالى يحبّ إبراهيم وقد اتّخذه خليلًا وقرَّر أن يستحيب لرجائه فقال له:

"قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ".

وفعل إبراهيم ما أمره الله تعالى، ذبح أربعة مِن الطيور وفرّق أجزاءها على الجبال، ثمّ دعاها باسم الله، فقام كلّ جزءٍ يبحث عن باقيه حتى التحمت الطيور وعادت حيّة طائرة إلى إبراهيم عليه السلام.

– إلا أنّ إبراهيم مثل أي رجلٍ عندما يتقدَّم به السنّ دون ذُريةٍ، يشعر بالحزن ويتمنّى الولد الذي يكون له سندًا.

– سارة عليها السّلام الزّوجة المُخلصة البارّة، كانت تشعر بذلك، أشفقت على زوجها النبي الكريم الذي عاشت معه رحلة كفاح وسفر طويلة، وكان القرار الصّعب على نفسها.

– قبل قليل وفي أثناء وجودهما في مصر أهداها ملك مصر سيّدة تكون في خدمتها، هي السّيدة هاجر عليها السلام، فكَّرت السّيدة سارة، ماذا لو تزوّج إبراهيم عليه السلام، منها لعلّ الله تعالى يرزقه الذّريّة التي يتمنّى.

وعرضت الأمر على إبراهيم عليه السلام، وبالفعل تزوّج إبراهيم عليه السلام مِن السيدة هاجر عليها السلام، وولدت له إسماعيل النّبي عليه السلام.

– فرح إبراهيم عليه السلام، بابنه البكر إسماعيل أيما فرح، ورغم ذلك فقد استيقظ ذات يومٍ وطلب مِن السيدة هاجر أن تستعدّ لرحلة طويلة هي ورضيعها إسماعيل.

قطعت القافلة التي تتكوّن مِن الأب والأم والرّضيع وديانًا وجبالًا وصحاري أيامًا طويلة حتى وصلت إلى موضع ما في شبه جزيرة العرب، وصل إبراهيم واديًا قاحلًا، لا أثر فيها لشجر ولا زرع ولا لحياة من أي نوعٍ، نزل عن راحلته وأنزل زوجته وابنه، ترك لهما بعض الطّعام والماء الذي يكفي فقط ليومين ثمّ اعتدل للرحيل.

ذُهلت السّيدة هاجر مِن تصرُّف زوجها النبي وهرولت خلفه تسأله:

يا إبراهيم! أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي الذي لا شيء فيه؟!

– لم يرد إبراهيم وأكمل مسيره.

فهمت السيّدة هاجر أنّ إبراهيم النبي لا يتصرّف هكذا من نفسه، عادت تسأله: هل أمرك الله بهذا؟

ردّ عيلها إبراهيم: نعم.

توقّفت هاجر عليها السلام، والتقطت أنفاسها وشعرت بالراحة وقالت بكلّ ثقةٍ:

لن نضيع ما دام الله معنا وهو مَن أمرك بهذا.

سار إبراهيم عليه السلام حتى اختفى خلف الجبال، وهنا توقّف ورفع يديه إلى السماء قائلًا:

{رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ}.

في ما بعد...

كان وجود هاجر وإسماعيل عليهما السلام، سببًا في عمران الوادي عند بيت الله الحرام، كما سنعلم في قصّة إسماعيل لاحقًا إن شاء الله وذِكْر الأضحية وفداء إسماعيل.

– طعن إبراهيم عليه السلام، في السنّ، وذات يوم كان جالسًا أمام خيمته يتذكَّر ابنه وزوجته البعيدين عنه مسافات طويلة، هناك عند بيت الله الحرام، ويتذكَّر كيف فدى الله تعالى ابنه إسماعيل الذي اشتاق إليه إبراهيم بشدةٍ، فجأة نظر أمامه ليرى ثلاثة رجال، شديدي الوسامة جاؤوا مِن سفر، والغريب أن لا أثار سفر تبدو عليهم على الإطلاق، يبدون غرباء ليسوا مِن المحيط، اقتربوا منه وقالوا:

سلامًا.

ردّ عليهم: سلامٌ.

أدخلهم بيته ورحَّب بهم، وأمر بعجل سمين فذبح وجهّز وقدَّمه إليهم للترحيب بهم، وجلس مع زوجته السيّدة سارة التي كانت عجوزًا شابَ شعرها وتغضَّن وجهها مِن أثر الزمن، إلا أنّ الرجال لم تمتدّ أيديهم إلى الطعام، فتوجّس إبراهيم منهم خيفة، وتذكَّر أنّه رآهم فجأةً أمامه دون راحلةٍ أو متاعٍ ولا تبدو عليهم أي أَمَارَات السفر، قال لهم بقلقٍ:

ألا تأكلون؟!

ردّ أحد الثلاثة:

نحن لا نأكل يا إبراهيم، نحن ملائكة، أرسلنا الله إلى قوم لوط.

لم يكُن الثلاثة إلا جبريل وإسرافيل وميكائيل.

سمعت السيِّدة سارة الحوار فضحكت، فبشَّرها الملائكة بـ"إسحاق"، استغربت السيّدة سارة الأمر، كانت عجوزًا عقيمًا، لكنّه أَمْر الله تعالى، تعجَّبت مِن أن تلد في تلك السّن وزوجها شيخ عجوز، فكان ردّ الملائكة:

{قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ}.

غمرت الفرحة إبراهيم وسارة بالبشرى العظيمة مِن الله تعالى، وبالفعل أنجبت سارة عليها السلام، إسحاق عليه السلام، ومِن ورائه يعقوب واستمرّت النبوّة في نسل إبراهيم عليه السلام.

أمّا عن إسماعيل فقد جاء مِن نسله خير البشر محمد صلى الله عليه وسلم، وشاء الله تعالى أن يكون الأنبياء اللاحقون كلهم مِن نسل إبراهيم عليه السلام.

فيما بعدُ مات إبراهيم عليه السلام، هناك شِبه إجماع على أنّ قبره في المسجد الإبراهيمي في مدينة الخليل الفلسطينية.

وصدقت كلمة الله تعالى:

{إنّ إبراهيم كان أُمَّة}، عليه الصلاة والسلام.

-6-

إسماعيل عليه السلام

– حمل إبراهيم النبي عليه الصلاة والسّلام، زوجته المصرية هاجر وابنه قُرّة عينه الذي رزقه الله بعد أن شاب شعره وتقدَّم في السنّ، وهاجر بهما إلى أراضٍ بعيدةٍ، حتى وصل إلى وادٍ لا زرع فيه ولا ماء ولا بشر ولا حيوان ولا حياة مِن أي نوعٍ.

ترك زوجته وابنه الطفل الصّغير وترك معهما طعامًا وماءً يكفيهما ليومين فقط واعتدل راحلًا.

اندهشت السيّدة هاجر بشدّة مِن تصرّفه، فهروت خلفه تقول له:

– كيف تتركنا يا إبراهيم في هذا المكان القفر الذي لا زرع فيه ولا ماء ولا حياة؟

لم يُجِب إبراهيم وأكمل مسيره.

كان نبيًّا كريمًا، ليس أي نبي، إنّه خليل الله تعالى وكانت تعلم بذلك، توقَّفت، وسألته:

هل الله أمرك بأن تفعل هذا؟

أشار إليها الخليل بـ"نعم".

هدأت السيدة هاجر، توقَّفت، التطقت أنفاسها وقالت:

إذًا فلن يُضيّعنا الله.

– بقيت هاجر وإسماعيل عليهما السلام، وحدهما في الصحراء القاحلة وسط الشّمس المُلتهبة، مضى يومان ونفد الطعام والماء، شعر إسماعيل بالعطش، تركته أمّه وذهبت تبحث له عن ماء، صعدت جبل الصّفا في الشّمس الحارقة وراحت تبحث عن أي مظهرٍ للحياة لكن لا يوجد.

نزلت مُسرعة مِن الصفا وراحت تقطع الوادي وقلبها يتقطّع على طفلها الذي يبكي عطشًا، وصعدت إلى جبل المروة لكن...

لا أثر لأي حياة على الإطلاق، عادت إلى الصّفا ثم إلى المروة سبع مرات وهي تسعى بين الجبلين تذهب وتعود (مِن هنا جاءت شعيرة سعي الحُجّاج بين الصّفا والمروة سبع مرات).

ثمّ عادت الأم المرهقة الحزينة التي لا تملك أي حيلة، ترى ابنها وقد ارتفع صوت بكائه من العطش، وفي اللحظة التي تُمثّل قمة اليأس بالنسبة إليها جاءت رحمة الله تعالى مِن حيث لا تحتسب، ضرب إسماعيل الطفل بقدمه الصغيرة الأرض وهو يبكي عطشًا، فانفجرت بالماء، ماء زمزم.

بكت الأم فرحًا وراحت تسقي طفها وتشرب وتشكر ربها.

ومع وجود بئر زمزم بدت الحياة تدبّ في المكان الذي كان ميتًا مِن قبل، بدأت بعض القوافل تستقرّ في المنطقة وجذب الماء العديد مِن الناس وبدأ العمران، وحقّق الله تعالى دعوة نبيّه إبراهيم.

– هنا وقبل أن نُكمل القصّة لا بد مِن ذِكر نقطة مهمّة وهي مِن الإسرائيليات التي لا يمكن أن تليق بنبي عظيم كإبراهيم، عليه السلام، وهو أنّ إبراهيم عليه السلام ترك ابنه إسماعيل وزوجته هاجر في مكة بتحريضٍ من السيدة سارة عليها السلام، التي ضاقت ذرعًا بهاجر وشعرت بالغيرة منها بعد أن وضعت لإبراهيم عليه السلام، الولد.

فلا يليق أبدًا بإبراهيم عليه السلام، ولا بزوجته العظيمة السيّدة سارة أن تدفعه للتصرّف على هذا النحو، وما كان تصرّف إبراهيم إلا عن أمرٍ مِن الله تعالى.

– تحرَّك إبراهيم عليه السلام، عائدًا إلى دياره تاركًا خلفه زوجته وابنه، لك أن تتصوَّر مشاعر أب يترك وحيده وزوجته في صحراء قاحلة، لكن هذا الأب هو نبيٌّ في النهاية.

توقَّف إبراهيم الخليل عليه السلام، ورفع يديه إلى السماء داعيًا ربه.

{رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ}.

ثمّ انطلق عائدًا وقد وضع كلّ ثقته في الله تعالى الذي لن يخذله أبدًا.

– كبر إسماعيل عليه السلام، وهو يعيش مع أمّه هاجر في مكة المكرمة، وتعلّق به قلب أبيه إبراهيم عليه السلام، الذي كان يذهب لزيارته وأمّه كلّ حين، لكن يبدو أنّ ابتلاءات إبراهيم في ابنه لم تنتهِ بعدُ لكن القادم كان أصعبها.

رأى إبراهيم عليه السلام رؤيا، ورؤيا الأنبياء وحي مِن الله تعالى وأمر لا بد أن يُنفّذ.

{قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى}.

تلطَّف إبراهيم عليه السلام، في إبلاغ ابنه برؤياه التي يُمثّل تحقيقها ذبحًا له، فما كان مِن الابن البار الذي يعلم أن أباه نبي وما يفعل شيئًا إلا عن أمرٍ مِن ربّه تعالى، ما كان منه إلا أن ردّ على والده قائلًا:

{قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ}.

ردٌّ لا يُمكن أن يأتي إلا مِن نبي ابن نبي عليهما السلام، واصطحب إبراهيم ابنه إسماعيل وذهب ليُنفِّذ أمر الله تعالى، ولمَّا همّ إبراهيم بوضع السكين على رقبة ابنه، جاءه نداء الله تعالى:

{وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ}.

نزلت الآيات بردًا وسلامًا على قلب إبراهيم عليه السلام، الذي كاد أن يذبح ابنه طاعةً لأمر الله تعالى، وفدى الله تعالى إسماعيل بذبحٍ عظيمٍ.

جعل هذا يوم أعظم أعياد أمّة سوف تأتي في ما بعدُ مِن نبي عربي مِن نسل إسماعيل عليه السلام، وهو عيد الأضحى المبارك عن أمّتنا الإسلامية.

كان إسماعيل عليه السلام، ابنًا بارًّا بأبيه إبراهيم وأمّه هاجر عليهما السلام، ومدحه ربّه تعالى قائلًا:

{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا}.

– عاش إسماعيل عليه السلام في شبه الجزيرة العربية، روّض الخيل واستأنسها واستخدمها وتزوَّج وعاش هناك، وذات يوم جاءه أبوه إبراهيم

ليزوره، كان إسماعيل عليه السلام أصبح رجلًا قويًّا، وكانت زيارة إبراهيم تلك المرة أيضًا بأَمْرٍ مِن الله تعالى لمُهمَّة مُهمَّة جدًّا.

أخذ إبراهيم بيد ابنه وأراه مكانًا قريبًا منه، هذا المكان هو أوَّل بيت بني لله في الأرض، بناه أبونا آدم عليه السلام، بعد هبوطه إلى الأرض وظلّ يطوف حوله كما تطوف الملائكة حول العرش، ومُهمَّة إبراهيم وإسماعيل الآن هي إعادة بناء البيت الحرام.

وبدأ النّبيَّان الكريمان يُعيدان بناء بيت الله تعالى الأول في الأرض:

{وَإِذْ يَرْفَعُ إبراهيم الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}.

ثمّ انظر باهتمامٍ ماذا ترتَّب على دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام:

{رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}.

كان مُحمّد صلّى الله عليه وسلم خير البشر، هو دعوة أبوَيْه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

وأخيرًا بعد جهد جهيد ومشقَّة كبيرة انتهى بناء البيت الحرام.

– أراد إبراهيم عليه السلام، حَجَرًا مميَّزًا يبدأ منه الطّواف حول البيت، ذهب إسماعيل المُنهك ليبحث عن ذلك الحَجَر، ولمَّا عاد وجد الحَجَر الأسود في مكانه، فلمَّا سأل والده عمَّن جاء بهذا الحجر، ردَّ عليه عليه السلام بأنّ جبريل عليه السلام، هو مَن أحضره.

بعد أن تمّ البناء عاد إبراهيم عليه السّلام يدعو ربّه:

{رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ}.

– عاش إسماعيل عليه السلام، ما شاء الله أن يعيش في شبه الجزيرة العربية، وعاشت ذُرّيته مِن بعده فيها، ومِن نسله جاء خاتم الأنبياء وخير البشر محمد صلّى الله عليه وسلم.

hayahbook - حياة

-7-

لُوط عليه السّلام

لوط عليه السلام، هو ابن أخ إبراهيم عليه الصلاة والسّلام، وهو الرجل الوحيد الذي آمن له منذ بداية دعوته، وارتحل معه إلى أماكن عدة مِن العراق.

– لا نعرف بالتحديد الفترة التي أُوحي للوط عليه السلام في أثناء صحبته لإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، لكن ما نعلمه أنّ الله تعالى أرسل لوطًا إلى قوم كانوا يسكنون، على الأرجح، منطقة في جنوب الشام على الحدود بين فلسطين والأردن وكانت سبع مدن تُسمّى أكبرها سدوم.

– كان هؤلاء الناس قومًا فُجّارًا، يرتكبون الكثير مِن المعاصي والآثام التي لا تقبلها فطرة بشرية، أوّلها أنّهم كانوا يقطعون الطريق على المُسافرين والتجّار ويعتدون عليهم ويستولون على متاعهم ويسرقونهم، كما أنّهم قوم فجرة يرتكبون الآثام جهارًا ويتبجّحون بذلك ولا ينهي بعضهم البعض عن عمل السّوء، أمّا أبشع تلك الفواحش فإنّهم كانوا قومًا على غير ما خلق الله الفطرة البشرية، فكما قال فيهم تعالى:

{وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ}.

وكانوا يرتكبون تلك الفاحشة جهارًا وأمام بعضهم البعض دون حياءٍ أو خجلٍ في نادٍ لهم يأتون فيه المعاصي والفجر.

ذاق لوط عليه السلام منهم الأمرين وهو يدعوهم إلى عبادة الله تعالى والتوقّف عن قطع الطريق والعودة إلى الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، لكنّهم كانوا قومًا فجرة كفرة فلم يُؤمن للوط عليه السلام، إلا أهل بيته وحتى امرأته نفسها كانت مِن الكافرين.

ظلّ لوط عليه السلام سنوات طويلة بين هؤلاء الناس يدعوهم وينهاهم ويُحذّرهم عذاب الله تعالى حتى ضاقوا به ذرعًا، ولم يُؤمن منهم أحد، وكان أن قالوا:

{أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ}.

أي أنّهم كانوا يعرفون جيّدًا أنّ ما يرتكبون مِن آثام هو الدنس والكفر والفجر، وأن ما يدعو إليه لوط عليه السلام، هو التطهّر والفطرة السليمة لكنّهم بكفرهم وعنادهم رغبوا في إخراج لوط وآله مِن مدنهم، لأنّهم أُناس طاهرون يدعون إلى الطهارة.

– مضت سنوات طويلة ولوط لا يكلّ عن دعوته هؤلاء الفجرة حتى جاء أمر الله تعالى، وعندما ضاقوا ذرعًا بلوط عليه السلام قالوا له:

{ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}.

وحقَّت عليهم كلمة ربك، ولا رادّ لقضاء الله.

– نزل الملائكة الثلاثة المُكرّمون إلى الأرض، جبريل وميكائيل وإسرافيل، مرّوا أوّلًا على إبراهيم عليه السلام.

(راجع المقال السّابق: إبراهيم عليه السلام – 3)

وبشَّروه وبشَّروا زوجته سارة عليها السلام، بإسحاق ومِن وراء إسحاق يعقوب، ثمّ أخبروه بسبب إرسال الله لهم لعذاب قوم لوط، ظلّ إبراهيم الحليم عليه الصلاة والسلام، يُجادلهم في قوم لوط لعلّ الله يهديهم أو يهدي بعضهم، لكن الملائكة أخبرته أنّه لن يُؤمن منهم أحد وأنّ أمر الله قد نفذ.

وقريبًا مِن قرى قوم لوط نزل الملائكة الثلاثة، قابلوا ابنة لوط عليه السلام عند النهر تملأ إناءها، سألوها عن لوطٍ، نظرت إليهم الفتاة بدهشةٍ مِن منظرهم الغريب قليلًا وِمن شدّة وسامتهم، وطلبت منهم أن لا يدخلوا المدينة وأن يبقوا مكانهم حتى تُخبر أباها، انطلقت مُسرعة إلى لوط عليه

السلام تُخبره، ولمَّا جاء إليهم ورآهم اغتمّ وسيء بالضّيوف وضاق بهم ذرعًا لعلمه بقومه وفسادهم، ورغم ذلك فقد أكرم ضيوفه في بيته.

لم يُخبر الملائكة لوطًا بحقيقتهم، لكن قومه عرفوا بقدومهم مِن زوجته التي كانت كافرةً مثلهم، فجاؤوا إليه يطلبون منه أن يسلّمهم الضيوف، توسّل إليهم لوط، حاول إثارة النخوة داخلهم فقال لهم:

{فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخزونِ في ضَيفي أَلَيسَ مِنكُم رَجُلٌ رَشيدٌ}.

إلا أنّهم كانوا كفرة فجرة، ظلّوا يطرقون الباب على لوطٍ وضيفه بعنفٍ حتى كادوا يُحطّمونه، ولمّا رأت الملائكة الكرب والهمّ الذي وقع فيه لوط وعجزه عن دفع القوم الكافرين عرَّفوه إلى أنفسهم وطمأنوه أنّ هؤلاء القوم لن يصلوا إليه.

كسر الباب فجأة واندفع قوم لوط إلى داخل البيت، قام جبريل عليه السلام بإشارة مِن يده إليهم، ففقد القوم أبصارهم فجأة وأصابتهم غشاوة فظلّوا يتخبّطون بين الجدران، ثمّ خرجوا مِن بيت لوطٍ.

{وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ}.

ثمّ أمر الملائكة لوطًا عليه السلام، أن يخرج بأهله في قطع مِن الليل ولا يلتفت أحد منهم خلفه مهما حدث ومهما سمع.

{فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ}.

خرج لوط وسار مع بناته وزوجته ليلًا حتى ابتعدوا عن القرى واقترب الصّبح، ثمّ جاء أمر الله تعالى:

{فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ. مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ}.

قال العلماء إنّ جبريل عليه السلام، اقتلع بطرف جناحه مدنهم السّبع مِن قرارها البعيد ورفعها عاليًا إلى عنان السّماء حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم، ثمّ قلب المدن وهوي بها إلى الأرض، وفي أثناء السقوط أمطرتهم السماء بحجارة مِن الجحيم أبادتهم تمامًا، ونكست المدن على رؤوسها وغارت في الأرض حتّى انفجر الماء منها وتحوَّل قوم لوطٍ إلى بحيرةٍ مِن الموت.

كان لوط وبناته وزوجته يسمعون الأصوات المروّعة مع صوت تمزّق الهواء خلفهم بعنف غير مسبوق، إلا أن أحدًا منهم لم ينظر خلفه إلا زوجته الكافرة وكما أخبرته الملائكة، بمُجرّد نظرها إلى الخلف تفتت جسدها وسقط رمادًا على الأرض.

يُقال إنّ مدن قوم لوط كانت مكان البحر الميت المعروف حاليًّا، وهذا يُفسِّر قول الله تعالى:

{وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ}.

أي أن الله تعالى ترك آثار هؤلاء الكافرين عبرةً لمَن يخاف عذابه تعالى.

– مضى لوط عليه السلام ببناته حتى وصل إلى عمّه إبراهيم عليه السلام وأكمل حياته معه..

طعن إبراهيم عليه السّلام خليل الله، في السّنّ حتى قيل إنّ سنّه وقتها كان مائة عامٍ، بينما كانت السيِّدة سارة زوجته في التسعين مِن عمرها وكانت عاقرًا لا تُنجب، عندما جاءته الملائكة.

(راجع قِصّة لوط عليه السلام)

كان إبراهيم عليه السلام، وبناءً على وحي مِن ربّه تعالى، ترك ابنه إسماعيل وزوجته هاجر عليهما السلام، في شبه الجزيرة العربية عند البيت الحرام.

جلس إبراهيم يُجادل الملائكة في قوم لوطٍ، وكانوا قادمين لاقتلاع مُدنهم مِن أصولها والقضاء على كفرهم وفجرهم في الأرض، وفي أثناء الحوار بشّر الملائكة السيّدة سارة عليها السلام، بإسحاق.

اندهشت واستغربت بشدّة وقالت:

{قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ}.

نظرت إليها الملائكة و...

{قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ}.

– وبالفعل أنجبت السيّدة سارة في سنّها تلك إسحاق عليه السلام، وتوجّه إبراهيم بالشكر إلى ربه تعالى قائلًا:

{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ}.

– لم ترد الكثير مِن المعلومات عن إسحاق عليه السلام، والذي عاش مع والده إبراهيم ووالدته سارة عليهما السلام، وقام على خدمتهما ومساعدتهما، والأرجح أنّه أكمل رسالة أبيه في الدّعوة لدين الله تعالى الواحد الأحد خالق الكون.

تزوَّج إسحاق عليه السلام، في حياة والده إبراهيم الخليل عليه السلام، وأنجب يعقوب النبي عليه السلام، وكان يعقوب استكمالًا لبُشرى الملائكة لإبراهيم وسارة عليهما السلام.

{وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِين}.

حياة
hayahbook - حياة

-8-

يعقوب عليه السلام

أمَّا يعقوب فهو ابن إسحاق ابن إبراهيم عليهما السلام، وُلد في حياة جَدّه إبراهيم الخليل عليه السلام.

أطلق عليه أيضًا إسرائيل، وتعني على الأرجح "عبدالله" أو "مجاهدًا لله"، ومِن نسله جاء بنو إسرائيل.

تزوَّج يعقوب أربع نساء وأنجب اثني عشر ولدًا وبنتًا واحدةً.

وأولاده هم:

- روبين.
- يهودا (ومِن نسله جاء داوود وسليمان عليهما السلام).
- لاوي (ومِن نسله جاء موسى وهارون عليهما السلام).
- نفتالي.
- شمعون.
- زوبولون.
- يساكر.
- دان.

– جاد.

– يوسف.

– بنيامين وبنت واحدة هي "دينة".

– واصل يعقوب دعوة والده إسحاق وجَدّه إبراهيم عليهما السلام، لكنّه تعرّض لمحنة كبيرة واختبار صعب في حياته عندما تآمر أولاده على ابنه المُقرّب يوسف عليه السلام، وألقوه في البئر (قِصّة يوسف عليه السلام لاحقًا)، وفَقَدَ يعقوب بصره بسبب حزنه على ابنه، ورغم ذلك فقد صبر على الابتلاء وكان واثقًا في أنّ الله تعالى سوف يُعيد إليه يوسف عليه السّلام.

– هاجر يعقوب مع أبنائه إلى مصر، وأقام فيها بعد أن تولّى ابنه يوسف فيها الوزارة، عندما دخلوا مصر كانوا بضعة وسبعين فردًا هم إخوة يوسف وأسرهم.

كان يعقوب عليه السلام في مصر لكنّه دُفن في الخليل بجوار أبيه إسحاق وجَدَّه إبراهيم عليهما السلام، ووصف القرآن الكريم موقف وفاة يعقوب عليه السلام...

{أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إبراهيم وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}.

هذا هو النبيّ الكريم، في لحظات الموت القاسية يُوصي أبناءه باتّباع دين الله تعالى الحق ويأخذ منهم ميثاقًا على ذلك، تلك هي التركة والميراث اللذان تركهما يعقوب لأبنائه مِن بعده.

ملاحظة مُهمَّة:

ثمّة الكثير جدًّا من الإسرائيليات والقصص الخرافية التي تتحدَّث عن خدع وخيانات وأشياء مشينة في تاريخ يعقوب وإسحاق عليهما السلام، وهي ممَّا لا يصحّ ولا يليق بأنبياء كرام أرسلهم الله لهداية البشر.

hayahbook - حياة

-9-

أيوب عليه السلام

أُصدقكم القول أنّي كنت أستعجل الوقت للوصول لتلك القصّة، فالقصّة غريبة ومثيرة حقًّا، قبل الكتابة يجب أن أُراجع جيّدًا أحيانًا أكثر مِن مصدر فأتذكَّر وربما استزدت معلومات.

– مِن ناحية أخرى هي قصّة الصبر والثّقة في الله بلا حدود التي تُوصِل الإنسان لِمَا يبتغي، القِصّة باختصار تزهر الأمل في أي قلبٍ يائسٍ.

أترككم مع قصة...

أيوب النّبي الصّابر عليه السلام.

والذي قال عنه ربه تعالى:

{إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ}.

هو كما ذَكَرَ ابن كثير في البداية والنهاية: "كان رجلًا مِن الرّوم، وهو أيوب بن موص بن زارح بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام، وأمّا زوجته فورد أنّ اسمها ليا أو أو ناعسة أو رحمة، والمُرجّح أنّها رحمة بنت إفرايم ابن يوسف بن يعقوب بن إسحاق عليهم السلام".

– أمَّا أشهر رواية جاءت عن مرض أيوب وقصّته عليه السلام، فهي أنّ ملائكة الأرض كانوا يتحدَّثون عن الخلق وعبادتهم، فقال قائل منهم:

– ما على الأرض اليوم خير مِن أيوب، هو أعظم المؤمنين إيمانًا وأكثرهم عبادة لله وشكرًا على نعمه ودعوة له.

– سمع الشيطان ما يقال فساءه ذلك، انطلق إلى أيوب مُحاولًا إغواءه، لكن أيوب نبيّ كريم، لا يُمكن أبدًا أن تنطلي عليه حِيل الشيطان، إلا أنّ إبليس الرّجيم وحين يأس مِن أيوب خاطب الله تعالى فقال له:

– يا رب إنّ عبدك أيّوب الذي يعبدك ويُقدّسك لا يعبدك حُبًّا إنَّما يعبدك لأغراضٍ، يعبدك ثمنًا لِمَا منحته مِن مال وبنين وثروة، إنّه يخاف أن تزول تلك النّعم، وعلى ذلك فعبادته يشيع فيها الخوف والطّمع وليست عبادةً خالصةً ولا حُبًّا خالصًا لك.

– قال الله تعالى: "إنّ أيوب عبدٌ مؤمنٌ خالص الإيمان وليكن أيوب قبسًا في الإيمان ومثلًا عاليًا في الصبر، قد أبحت لك ماله وما يملك.. افعلْ ما تريد.. ثمّ انظر إلى ما تنتهي".

– انطلقت الشياطين فأتت على أراضي أيوب وأملاكه ونعيمه فدمَّرتها جميعًا، وانحدر أيوب مِن قمّة الثّراء إلى حضيض الفقر فجأة، وانتظر الشيطان تصرُّفه، فما كان مِن أيوب النّبي المؤمن الصّابر إلا أنْ قال: وديعة كانت عندنا استردّها الله تعالى، فالحمد لله على ما أعطى والحمد لله على سلب، وهو مالك المُلك يُؤتي المُلك مَن يشاء وينزع المُلك ممَّن يشاء.

شعر إبليس بالدّهشة والخزي مِن تصرّف النبي الكريم وأغاظه ردّة فعله، فعاد يُخاطب الله تعالى قائلًا: "إنّ أيوب لم يشكر ويحمد على المصيبة إلا اعتدادًا بأولاده وأملًا أن يقوى بهم ويستردّ ما فقد"، فأباح الله تعالى للشيطان أولاد أيوب، فنزل عليهم فزلزل البيت الذي يسكنون فانهار فوقهم وماتوا جميعًا.

خرَّ أيوب عليه السلام لله ساجدًا وقال: "الله أعطى والله أخذ فله الحمد مُعطيًا وسالبًا".

ازدادت دهشة إبليس مِن تصرّف أيوب وازداد سخطه وحنقه عليه، فعاد يقول لله تعالى: "إنّ أيوب صابر ويحمدك لأنّه مُعافى وصحيح في بدنه، فلو سلّطتني على بدنه فسوف يكفّ عن صبره".

وأباح الله تعالى للشيطان بدن أيوب، فما كان منه إلا أن تسبَّب في إصابته بمرض جلدي في كلّ جسده، فتقيَّح جسده وبدأ يتساقط جلده، فهجره كلّ أهله وأصحابه ولم يتبقَّ بجواره إلا زوجته.

– وظلّ أيوب صابرًا شاكرًا لله تعالى، فاشتدّ غيظ الشيطان وحقده ونقمته عليه، وهنا جمع شياطينه وذُرّيته يستشيرهم في أمر أيوب الصّابر لله مِن أين يأتيه، وعقدوا العزم على الوسوسة لزوجته.

وذهب إبليس إلى زوجة أيوب وملأ قلبها باليأس والإحباط مِن وضعهم هذا وتبدُّل الحال.

جاءت بالفعل زوجة أيوب تطلب منه أن يسأل الله تعالى أن يشفيه ويكشف عنه الكرب، فهم أيوب عليه السلام وسوسة الشيطان لزوجته، وأجابها أنّه يستحي مِن الله أن يرفع بلاءه ولم يدُم إلا سنوات قليلة، بينما مكث في الرخاء عُمرًا طويلًا.

وطلب منها أن تذهب عنه، فذهبت زوجته وبقي أيوب وحيدًا صابرًا شاكرًا لله تعالى، لا يعرف السخط إلى قلبه طريق.

– ولكم أن تتخيَّلوا.

رجل كان في قمّة النعيم الدّنيوي مِن مال وبنين وثروة وصحّة وأصدقاء وجاه ونعمٍ لا تُحصى، بفقد كلّ ذلك تمامًا لكنّه لا ينفكّ يشكر ربّه تعالى على ما أعطى وما أخذ.

– تلك كانت أشهر رواية وردت بشأن ابتلاء أيوب عليه السلام، ورغم ذلك فهي غير مُؤكّدة تمامًا، لكن المُؤكّد الذي نحن على يقين منه أنّ أيوب عليه السلام، فَقَدَ ماله وبنيه وصحّته بالفعل ومرض مرضًا جسيمًا وهجره الناس، وجاءه الشيطان ذات يومٍ يقول له: "يا أيوب إنّ كلّ ما أصابك مِن فقدان وفقر وألم وعذاب هو بسببي، فتوقَّف عن صبرك وشكرك لله وعبادته وسوف تُشفى ويذهب عنك كلّ ما تُعاني"، نهره أيوب عليه السّلام ولم يستمع إليه.

– جلس أيّوب عليه السلام، يُفكِّر كيف تجرَّأ الشيطان عليه وحاول غوايته، هنا قرَّر أمرًا.

تحامل على نفسه وتحمَّل آلامه ومرضه وخرج إلى الجبال وهناك:

{نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ}.

وجاءته استجابة ربّه سريعًا:

{ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ}.

اذهبْ يا أيّوب إلى عين المياه تلك فاشربْ منها واغتسلْ، وفعل أيّوب عليه السلام، وبمُجرّد أن لامس الماء جسده وطال جوفه شعر بالتعافي تمامًا وذهب عنه المرض والألم وعادت إليه صحّته، ليس هذا فقط بل إنّ الله تعالى عوّضه عمّا فَقَدَ لحُسن صبره وتحمُّله ما لا تتحمَّل الجبال الرواسي:

{وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ}.

وهب الله له تعالى أهله ومثلهم معهم وأعاد إليه صحّته وثروته بخيرٍ مما فَقَدَ.

وتبقّى شيء واحد، كان أيّوب عليه السلام غضبًا على زوجته مِن وسوسة الشيطان لها، وأقسم أن يضربها مائة ضربةٍ بالعصا عندما تعود إليه صحّته، كان الله تعالى يعلم أنّ أيوب لم يقصد أن يضرب زوجته حقًّا لكنّها كانت لحظة غضب، وحتى لا يحنث في قَسَمه طلب منه الله تعالى أن يأخذ حزمة بها مائة مِن أعواد الرّيحان ويضربها بها ضربة واحدة، وبذلك يكون برّ في قَسَمِه ولم يكذب، وكان هذا التصرّف بناءً على أوامر الله تعالى:

{وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ}.

– أثنى الله تعالى على عبده أيوب الصّابر الحامد الشّاكر له قائلًا:

{إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ}.

حياة
hayahbook - حياة

-10-

شُعيب عليه السلام

هناك شمال غرب الجزيرة العربية، وُجدت قبيلة مَدْيَن العربية، كان أهل تلك القبيلة يتّصفون بعددٍ مِن الرذائل المبغوضة عند الله عزّ وجلّ، أوّلها الشرك بالله تعالى.

وخمّن ماذا كانوا يعبدون؟

كانوا يعبدون الأيكة.

ولو علمتم ما الأيكة لأدركتم مدى ضلال هؤلاء القوم، ولذا أرسل لهم الله تعالى شعيبًا عليه السلام.

لا يوجد ما يُؤكّد نَسَب شُعيب عليه السلام، فقد أورد البعض أنّ جَدّه لأمّه هو لوط عليه السلام، والبعض أورد أنّه مِن ذُرّية إبراهيم عليه السلام أو مِمّن آمنوا مع إبراهيم، كما أورد البعض أنّه حفيد لاوي بن يعقوب عليه السلام (لاحظ أنّ موسى عليه السلام مِن سِبط لاوي بن يعقوب)، ولذا لنتجاوَز النّسب ونرى ماذا قال فيه القرآن الكريم:

{وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}.

– أرسل الله تعالى شُعيبًا إلى أهل مَدْيَن يدعوهم لعبادة الله تعالى وترك الشرك وعبادة غير الله، أمّا ما يعبدون مِن دون الله تعالى فكان الأيكة، وهي شجرة، حولها غيضة ملتفة بها.

كان شعيب عليه السلام خطيبًا حسن التعبير حلو الكلام، حتى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان إذا ذَكَرَ قال عنه: "ذاك خطيب الأنبياء".

استخدم شعيب عليه السلام، ما أُوتي من عبارة وتعبير ودعاهم إلى ترك عبادة تلك الشجرة وعبادة الله تعالى الواحد الأحد، وكان الله تعالى أرسل مع شعيب آيات بيّنة لأهل مَدْين، غير أنّ القرآن الكريم أوجز في ذلك ولم يُوضِّح تلك الآيات، وإنما أشار إليها فقط، ولذا لا يُمكن تكهنها.

{قَدْ جَاءتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ}.

كان قوم شعيب كُفّارًا يعبدون الأيكة، وليس هذا فقط لكنّهم أيضًا كانوا يُنقصون المكيال والميزان ولا يُؤدّون حقّه، كانوا يعتبرون ذلك ذكاءً منهم وفطنة، كما كانوا مُفسدين في الأرض.

{فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا}.

وليس الشّرك وبخس الناس وعدم إيفاء الكيل والميزان فقط هو ما كان عليه قوم مَدْيَن، لكنّهم أيضًا كانوا قطعة طريق...

{وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ}.

كانوا يقطعون السّبل على المارّة ويتوعدونهم، ويُفرضون عليهم إتاوات ويأخذون أموالهم بالباطل.

– استخدم شُعيب عليه السلام، ما أُوتي مِن حكمة وكلم طيب في نصح قومه وتذكيرهم بنعم الله عليهم قائلًا:

{وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ}.

وتارة يخوّفهم مِن عذاب الله تعالى قائلًا: {وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ}.

لم يُقصِّر نبي الله شُعيب عليه السلام، في دعوة قومه بكلّ السّبل المتاحة، فآمنت له طائفة منهم وكفرت طائفة، ظلّ شعيب يدعوهم، فلمَّا ضاقوا به ذرعًا وبدعوته ردّوا عليه مُستهزئين بما يدعوهم إليه:

{قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ}.

هل تأمرك صلاتك يا شُعيب أن تجعلنا نترك ما نعبد وما وجدنا عليه آباءنا مِن قبل أو أن تنهانا أن تتصرّف في أموالنا كما نشاء؟ أين حلمك يا شعيب وحكمتك؟

ردٌّ فيه سخرية واستهزاء مِن نبي الله، لكنّه يعلم عاقبة ما يفعلون، وما كان له أن يتردَّد أو يتراجَع عن دعوته، فقال له بلينٍ وتلطّفٍ:

{يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}.

– ثمّ قصد شعيب عليه السلام، الفصيح الحكيم، تذكيرهم بنهايات الطّغاة والكفّار مِن الأقوام الأخرى والتي مِن المُؤكّد أنّه ذكرها لهم:

{وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ}.

إلا أنّ الطائفة الكافرة مِن قوم شعيب رفضوا كلّ أشكال النّصح والترغيب والترهيب التي اتّبعها نبيّهم، ضاقوا به ذرعًا وبما يدعوهم إليه فقالوا له:

{يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا}.

نبرة التّخويف والتهديد المُعتادة مِن أكابر القوم وعتاة الكافرين، لا نفقه ولا نفهم ولا نهتمّ بما تقول يا شعيب، أنت ضعيف فينا يا شعيب، انتهِ عمَّا تدعو إليه وعُدْ إلى مِلّتنا وإلا...

{لَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ}.

ما زال الأمل يُراود نبي الله شُعيبًا في استمالة قلوبهم وجعلهم يُؤمنون بالله تعالى، يردّ على كلامهم هذا قائلًا: {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ}.

مُستنكرًا، مُتسائلًا، غاضبًا أن يُقيموا وزنًا واهتمامًا لقبيلته ولا يخشون الله تعالى خالق كلّ شيء والمحيط بما يعملون.

– هنا جاء قرار كفرة قوم شعيب عليه السلام، لا مكان لك ولا لِمَن آمن معك بيننا يا شعيب.

{قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا}.

– وذلك بعد أن اتّهموه بالسّحر والكذب:

{قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}.

أدرك شعيب عليه السلام، أنّ هؤلاء القوم لن يُؤمنوا له مهما جاءهم ببينات ومهما دعاهم، تأكَّد أنّ أمر الله تعالى نافذ وأنّ العذاب واقع بهم لا محالة، فقال لهم:

{يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ}.

ولم ينتظر شُعيب كثيرًا حتى انصبّ عذاب الله تعالى على الذين كفروا مِن قومه.

يُذكر أنّ قوم شعيب عليه السلام، أُصيبوا بثلاثة أنواعٍ مِن العذاب، وردت في سور مختلفة مِن القرآن الكريم:

{فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}.

– وكذلك رجفت بهم الأرض وتزلزت بعنفٍ:

{فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ}.

وليس هذا فقط بل وأصابتهم صيحة أزهقت أرواحهم:

{وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ}.

وفي تفسيرٍ لتعدّد أنواع العذاب تلك أنّ الصّيحة العظيمة السّاحقة جاءتهم مِن سحابة كبيرة أظلّتهم ورجفت بهم الأرض، فأصبحوا جثثًا فارغة مِن

الحياة في لحظاتٍ، وكان هذا بعد أن نجّا الله تعالى شعيبًا والمؤمنين معه.

{وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا}.

ملاحظةٌ:

عندما خرج موسى عليه السلام مِن مصر هاربًا قبل أن يُوحى إليه، ورد ماء مَدْين وقابل ابنتي شعيب عليه السلام، وسقى لهما وكانت زوجته عليه السلام، كما سيرد في قصّة موسى عليه السلام، هي ابنة شُعيب عليه السلام.

hayahbook - حياة

-11-

يونس عليه السلام

هو يونس، وهو ذو النون، يونس ابن متى عليه السلام، ذُكر أن نسبه يعود إلى بنيامين بن يعقوب أخ يوسف الشقيق عليهم السلام.

أرسل إلى قومه في مدينة نينوى بالعراق، ذَكَرَه الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: "لا تفضّلوني على يونس بن متى".

– كان يونس نبيًّا كريمًا أرسله الله إلى قومه الذين كانوا يعبدون الأصنام. دعاهم لعبادة الله تعالى وترك عبادة ما دونه، نهاهم عن فعل المُنكرات، وطلب منهم اتّباع دين الله الحق.. أرشدهم إلى فعل الخير ورغّبهم في ثواب الله تعالى وجناته، وحذَّرهم مِن عذابه في الدنيا وناره في الآخرة، لكنّ أحدًا لم يُؤمن منهم.

شعر يونس عليه السلام بالغضب واليأس مِن قومه.

خرج مِن مدينته وترك قومه، حانقًا، غاضبًا، آسفًا لعدم إيمانهم، وصل إلى شاطئ البحر وقرَّر أن ينقل سفينة تنقله إلى مكانٍ آخر بعيدًا عن أولئك القوم الكافرين.

إلا أنّ أمر الله تعالى لم يكُن جاءه يترك قومه والتوقّف عن دعوتهم، لم يكُن يونس عليه السلام يظنّ أنّ الله تعالى سوف يُعاقبه على تركه قومه، ليس على النبي أن يُدخل الناس جميعًا في دين الله، لكن عليه أن يدعوهم حتى يأذن الله أمرًا، إلا أنّ يونس عليه السلام ذهب غاضبًا قبل أن يأتيه هذا الأمر.

ذهب يونس إلى الشاطئ وقرَّر أن يركب سفينة ويرحل بعيدًا عن تلك المدينة الكافرة، رست سفينة على الشاطئ، ركبها يونس عليه السلام.

{إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ}.

وفي قلب الماء هبّت عاصفة، كان مِن عادة البحارة إذا ثقلت حمولة السفينة وتغرق أن يُجروا قرعة على أحدهم يُضحّي بنفسه ويلقى في الماء حتى تنجو السفينة مِن الغرق.

أُجريت قرعة ووقعت على يونس عليه السلام.

{فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ}.

وألقى يونس عليه السلام بنفسه في الماء، وهناك كان ينتظره قدره الذي قدره الله تعالى، وكان عبارة عن حوت ضخم، فغر فاه والتقم يونس عليه السلام.

{فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ}.

وداخل الحوت أدرك يونس أنّه أخطأ حينما ترك قومه ورحل بعيدًا عنهم دون أن يأتيه أمر الله، ولأنّه نبيّ كريم عليه السلام فقد تصرّف مثل الأنبياء، كما لجأ إبراهيم جَدّه عليه السلام إلى ربّه وهو في قلب النار، لجأ إلى ربّه يدعوه ويرجوه، وأصبح يدعو ربه تعالى بأعظم الدعاء:

{لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}.

وهذا من أعظم الدعاء الذي يدعو به كل مؤمن ربه تعالى وهو في ضيق من أمره منذ أن لفظه يونس عليه السلام، ولولا التسبيح لله وهذا الدعاء العظيم ما خرج يونس مِن بطن الحوت أبدًا.

{فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}.

دعا يونس ربّه تعالى أن ينجّيه مِن بطن الحوت بعد أن لبث فيه مقدارًا لا يعلمه إلا الله تعالى، فاستجاب الله له وأنجاه.

{فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ}.

– لفظ الحوت يونس عليه السلام، على الشاطئ وكان النبي سقيمًا مريضًا، تلهب الشّمس جسده فأنبت الله تعالى عليه شجرة ذات أوراق عريضة تقيه حرّ الشمس، وشفاه الله وردّ له عافيته بقُدرته تعالى.

– لم يكُن يونس يعرف ما جرى في قومه والّذين ظلّ سنوات طويلة يدعوهم فأبوا أن يؤمنوا به، ولقد ظنّ أنّ عذاب الله تعالى وقع بهم لكن ما حدث كان غير ذلك، لقد آمن قوم يونس بالله تعالى واتّبعوا دعوته بعد خروجه من بينهم غاضبًا.

{فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}.

منع الله تعالى عنهم عذاب الخزي الذي كان سوف يقع بهم في الدنيا ومتّعهم فيها.

– وعاد يونس بن متى عليه السلام، إلى قومه الذين كانوا مائة ألف أو يزيدون وقد آمنوا به جميعًا.

{وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}.

تلك كانت قِصّة يونس ابن متى عليه السلام.

-12-

إدريس عليه السّلام وأنبياء آخرون

{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا}.

– هو نبيّ الله إدريس عليه السلام، ذَكَرَ ابن اسحاق أنّه أوّل مَن خطّ بالقلم.

نبيّ الله إدريس مِن أكثر الأنبياء الذين دارت حولهم الأساطير، ومِن أشهر تلك الأساطير أنّ إدريس هو أوزوريس الذي تدور حوله الأسطورة الأشهر في التاريخ المصري القديم، أسطورة إيزيس وأوزوريس.

في الواقع لم يرد في القرآن الكريم ولا السّنّة النبوية الشريفة ما يُشير إلى زمان بعثة النبي إدريس عليه السّلام ولا مَن كان قومه.

ربّما كان نبيًّا بُعث في مصر ولمّا رفعه الله تعالى مثلما رفع عيسى ابن مريم عليه السلام، افتتن به قومه ونسجت حوله الأسطورة، أو كان الأمر غير ذلك، وما نحن متأكّدون منه أنّ إدريس عليه السلام، كان نبيًّا رفعه الله تعالى إلى السماوات، وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، حديث الإسراء والمعراج الثّابت في الصحيحين أنّه مرّ به وهو في

السماء الرابعة، وذلك ما ورد بشكل مُؤكّد في نبي الله إدريس عليه السلام.

الْيَسَع عليه السلام

ذَكَرَ الله تعالى نبيّه الكريم اليَسَع في مواضع مِن القرآن منها:

– {وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطا وَكُلّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ}.

– {وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ}.

– ذَكَر ابن عساكر أنّ اليَسَع هو مِن نسل إفرايم ابن يوسف عليه السلام، وقد ذُكِر في التوراة باسم إليشع، لكننا لا نعرف عنه أي معلومات مُؤكّدة غير كونه نبيًّا كريمًا، فضله الله تعالى وجعله مِن الأخيار.

ذو الكِفْلِ عليه السلام

{وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ}.

– ذَكَرَ بعض المُفسّرين أنّه ابن أيوب عليه السلام.

– وذو الكِفْلِ مِن الأنبياء الذين ذَكَرَهم الله تعالى، مقرونًا بأنبياء آخرين مشهورين، ولم يرد عنه أي معلومةٍ ولا عن قومه ولا زمانه.

وروى ابن جرير: أنّه لم يكُن نبيًّا وإنما كان رجلًا صالحًا، وكان تكفّل لقومه أن يكفيهم أمرهم ويقضي بينهم بالعدل، فسُمّي "ذا الكِفل".

أنبياء قوم يس (أصحاب القرية)

{وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ * قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ * وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * آتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ * إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ * قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ * وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ * إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ}.

– اشْتُهر عند الكثير مِن المُفسِّرين أنّ تلك القرية هي أنطاكية، وكما يتضح مِن سياق الآيات أنّ الله تعالى أرسل لأهل تلك القرية رسولين فكذّبوهما، فأرسل لهم الله تعالى نبيًّا ثالثًا فأنكر القوم أنّهم رسل وكذَّبوهم، وقالوا إنّهم تشاءموا منهم وهدَّدوهم بالرّجم والقتل.

جاء مِن أقصى المدينة رجل آمن بالأنبياء يدعو قومه إلى الإيمان بهم واتّباعهم.

قتل أهل القرية الرجل الصالح، لكن القرآن لم يذكر شيئًا عن قتله وإنّما تجاوز ذلك، ليذكر لنا أنّ الله تعالى أدخله الجنة.

حياة hayahbook

-14 /13-

موسى وهارون عليهما السلام

– بعد أن مكَّن الله تعالى ليوسف في الأرض وأصبح ذا مكانة في مصر، أرسل يستقدم أباه وأهله ودخل بنو إسرائيل مصر.

بضعة وسبعين فردًا كانوا.

يعقوب عليه السلام وأبناؤه وأسرهم، عاشوا فيها حتى حين، وبعد وفاة يعقوب عليه السلام، فضّل الأسباط أن يبقوا في مصر في ظلّ وجود يوسف عليه السلام، حاول يوسف نشر دعوة التوحيد في مصر، كان يوسف نبيًّا مُرسلًا لأهل مصر، لكن بعد وفاته عادت الأمور إلى سابق عهدها وعاد تعدّد الآلهة. مضى وقت على بني إسرائيل في مصر، تفاوت تقدير المُؤرّخين له ما بين 128 سنة إلى 450 سنة، خلال هذه الفترة انحرف الكثير منهم عن عبادة الله الواحد الأحد وعبدوا الآلهة الأخرى مثل باقي الشعب وإن بقي البعض منهم على ديانة التوحيد وملّة إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام.

– مضت الأمور حتى جاء زمن حَكَم مصر فيه ملك ظالم مُتجبّر (بعض المُؤرّخين أثبت تاريخيًّا أنّ هذا الحاكم وهو "فرعون" لم يكُن

مصريًّا لكن كان مِن الهكسوس الذين حكموا مصر لفترة – لمزيدٍ مِن المعلومات عن الموضوع راجع كتاب "فرعون ذو الأوتاد" أحمد سعد الدين) حتى أنّه ادّعى الألوهية:

{فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}.

وَعَلَى وتجبَّر في البلاد وفرَّق بين أهلها وجعلهم شيعًا وعصبيات.

{إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا}.

– كان هذا الملك يُعادي بني إسرائيل ويكنّ لهم الحقد والكره (لأسبابٍ اختلف المُؤرّخون فيها، لكن أغلبهم اتّفق على تدخّل بني إسرائيل في شؤون السلطة والحكم)، وفي نفس الوقت يرى تكاثرهم وزيادتهم وانتشارهم في البلاد فاستعبدهم في الأرض، وأخذ يسخّرهم في إقامة مدن ومشروعات ويُعاملهم هو وجنوده مُعاملة العبيد حتى ذاقوا الوَيْل في عهده.

ثمَّ جاءت الطَّامة الكبرى على رؤوس بني إسرائيل.

نبوءة

– نبوءة غامضة انتشرت بينهم انتشارًا كاسحًا، لا تعرف هل هي حلم لأحدهم أم نبوءة عرّاف منهم أم أحلام يقظة وآمال تُوافق رغباتهم أم غير ذلك، المهمّ أن المقولة انتشرت بشدةٍ حتى وصلت مسامع فرعون.

ووجد ذات يوم مَن يُبلغه مِن رجاله أنّ بني إسرائيل يتناقلون نبوءة خطيرة تقول:

إن طفلًا يُولد لبني إسرائيل سوف يكون السّبب لاحقًا في سقوط فرعون عن عرشه.

(بعض المُؤرّخين ذَكَر أنّ فرعون نفسه حلم بنار تخرج مِن بيت المقدس تدمّر ملكه ومملكته، وفسّر له العرّافون الحلم بأنّ أحد أبناء بني إسرائيل يتسبَّب في زوال حكمه وتدميره).

– لك أن تتخيَّل ردّة فعل فرعون الذي، ومن الأصل، يكره بني إسرائيل ويستعبدهم فماذا بعد هذه النبوءة؟

فكَّر ثمّ قرَّر، لنقتلنّ كل طفل ذَكَر يُولد فيهم ولنتركنّ بناتهم لاستعبادهنّ حتى إذا ما فني الرجال منهم قضي على نسلهم جميعًا وانتهى وجودهم في الحياة للأبد.

– وبدأ تنفيذ المهمّة بالفعل، بدأ جنود فرعون يقتلون المواليد الذّكور مِن بني إسرائيل، ويتركون الإناث إلا أنّ أحد مُستشاري فرعون أو وزيره تنبَّه لنقطة مُهمّة، وأمام فرعون عرض الأمر.

لا نريد أن يفنى هؤلاء تمامًا، إنّهم قوّة بشرية كبيرة ومهمَّة نستغلّها بالمجان في ما نريد مِن أعمالٍ، فإذا ما فنوا جميعًا فقدنا أيدي عاملة مُهمَّة جدًّا للدولة.

– ما الحل إذًا؟

– فَلْنَقْتُلْ أبناءهم الذّكور عامًا ونتركهم آخر.

وهذا ما كان بالفعل.

– كان رجلٌ صالحٌ مِن بني إسرائيل، يُدْعَى "عمران"، هو كما أورد ابن كثير، عمران بن قاهث بن عازر بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام.

كان عمران مِمّن بقي على ملّة إبراهيم ودين الآباء، إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف والأسباط عليهم السلام.

وُلد له ولد، فرح به وأطلق عليه "هارون".

كان له ابنة، ثم ولد له ولد آخر، هو موسى ابن عمران عليه السلام.

ورغم فرح الأسرة بالطفل فإنّ الحزن والهمّ أصابهم وخاصّة الأم التي كاد قلبها يتمزّق ألمًا على رضيعها موسى.

لقد وُلد موسى في عام ذبح الأطفال الذي حدَّده فرعون، لكنّ الله تعالى كانت له مشيئة أخرى، وقدر الله نافذ لا محالة.

وجاء وحيه تعالى إلى أم موسى:

{وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}.

(الوحي هنا فسَّره العلماء بأنّه وحي إلهام وإرشاد وليس وحي نبوّة كما يقول تعالى: {وأَوْحى ربك إلى النحل}).

– وضعت الأم رضيعها موسى عليه السلام، في تابوت ووضعته في النيل وتركته يجذبه التيّار، وكانت عناية الله تعالى هي مَن تحفظ موسى وتُحرّك التابوت.

وصل التابوت أمام قصر فرعون المُقام على النيل، وهناك التقطه الحرس وأدخلوه إلى فرعون.

{فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ}.

– رأى فرعون الطفل في التابوت، واستنتج أنّه أحد أطفال بني إسرائيل وببساطة ألقى أمره بقتل الطفل، هنا برزت آسية بنت مزاحم.

زوجة فرعون، الغريب أنّها كانت عكسه تمامًا في كل شيء، كانت امرأة صالحة، بمُجرّد أن رأت الطفل ووجهه يشرق بأمارات النبوّة، تعلَّق قلبها به وأحبّته.

{وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}.

كانت عاقرًا لا تُنجب، ورجت فرعون أن يترك الطفل ولا يقتله، فاستجاب لها على مضضٍ، وهكذا تربّى موسى عليه السلام، في قصر عدوّه اللدود وعدو قومه، ومضى قدر الله في طريقه.

وهناك في بيت عمران كانت الأم فارغة الفؤاد مِن كلّ شيءٍ في هذه الدنيا إلا ابنها الذي تركته في النيل، يملأ عقلها وقلبها وتفكيرها، حتى كادت مِن فرط اللهفة عليه أن تخرج تسأل عنه جهرًا، لكنّ الله تعالى ربط على قلبها وألهمها التماسُك.

{وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}.

– طلبت مِن أخته أن تخرج لتتقصّى أخباره، ذهبت الفتاة تتقفّى أثر أخيها، وهناك عند قصر فرعون عرفت القصّة كلها.

– وجدت أخاها الرّضيع يبكي جوعًا، جاؤوه بمُرضعةٍ مِن القصر فرفضها، وتكرَّر الأمر مع ثانيةٍ وثالثةٍ.

{وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ}.

– هنا تحدَّثت الفتاة مع حرس القصر وعرضت الخدمة، ألهمها الله تعالى ما تفعل.:

{فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ}.

– عرضت عليهم أن يذهبوا بالطفل لأهل بيت يتكفّلون بإرضاعه وإطعامه، تحدَّثت الفتاة بكلّ ثقةٍ مؤكّدة أنّ الطفل سوف يقبل الرضاعة مِن تلك السيدة والتي في الواقع لم تكُن إلا أمّه.

وهكذا أعاد الله تعالى موسى إلى حُضن أمّه بقدرته بعد أن أصبح طفلًا ملكيًّا في قصر فرعون وفي كنف زوجه.

{فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}.

وبذلك أصبح موسى عليه السلام، في عُهدة قصر فرعون وفي نفس الوقت يطعمه وتُربّيه أسرته أعداء الفرعون، وهذا مِن حُسن التقدير الذي لا يُمكن أن يفعله إلا الله تعالى.

{وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي}

كان كلّ مَن يرى موسى الطفل يقع حبّه في قلبه كما مشيئة الله تعالى، تربّى موسى في القصر الملكي وتلقّى أفضل العلوم على يد أحسن الأساتذة، كانت مصر وقتها مملكة كبرى لها مكانتها (دون النّظر إلى مَن كان حاكمها في ذلك الوقت).

– كان موسى عليه السلام يعلم أنّه ليس ابن فرعون لكنّه مِن بني إسرائيل، وكان يرى اضطهاد واستعباد فرعون وقومه لبني إسرائيل، كبر موسى وأصبح شابًّا قويًّا وذات يوم...

{دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ

فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ}.

– كان موسى مِن القوّة بحيث أنْ قَتَلَ الرجل بمُجرَّد أن دفعه بعنفٍ، لم يكُن يقصد ذلك وندم عليه بشدة، واستغفر الله تعالى على قتل النّفْس، وأصبح خائفًا يترقَّب ما سوف يحدث له.

تطوَّر الأمر بسرعةٍ، جاء مَن يخبره أنّ الملأ يتآمرون عليه ليقتلوه، خرج موسى مِن مصر على عجلٍ خائفًا يدعو ربّه أن ينجّيه، قَطَعَ جبالًا ووديانًا ومدنًا وصحاري حتّى ابتعد عن سُلطة فرعون ووصل إلى هناك...

مَدْيَن.

شمال غرب جزيرة العرب، والتي بعث في قومها شُعيب عليه السلام، وهناك جرت قِصّته مع الفتاتين اللتين سقا لهما ودعاه أبوهما ليُكافأه.

(كثيرٌ مِن المُؤرّخين والمُفسّرين رجَّحوا كون الرجل الذي تزوَّج موسى ابنته هو نبيّ الله تعالى شعيبًا، لكن البعض قال بكونه رجلًا صالحًا مِن قوم شُعيب).

تزوَّج موسى الفتاة الصَّالحة الخجول ومكث في مَدْيَن عشر سنوات.

{وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى}.

ثمَّ جاء أمر الله بالرّحيل لقدر خلق موسى عليه السلام له.

– انتهت المُدّة التي وعد بها موسى الرجل الصالح والد زوجته، وقرَّر موسى العودة إلى مصر.

رغم المخاطر فإنّ الأمر بالنسبة إليه كان منتهيًا، موسى ورغم عدم نزول الوحي له بالرسالة إلى الآن هو نبي يعدّه ربه لرسالة عظمى. في الصباح كان يصطحب أسرته ويرحل عائدًا إلى مصر، وقطع نفس الطريق عكسيًّا، وصل إلى جبل الطور وهناك كان الجو شتاءً والبرد والمطر والظلام تلفّ المكان، توقَّف موسى وأسرته، يريد أن يوقد نارًا، فجأة لاح له هناك فوق الجبل نارًا عظيمة مُشتعلة، فرح بها، ترك أهله وتحرَّك نحوها لعلّه يأتي منها بقبس أو يجد فيها ما يهديه لطريقه، صعد الجبل وبيمينه عصا يستند إليها، وصل لمصدر النار في وادٍ يُدْعَى "طوى" بمُجرَّد وصول الوادي لاحظ شيئًا أثار دهشته بقوّة، لا برد ولا مطر ولا رياح هنا، المكان ساكن سكونًا عظيمًا كأنّه في عالم آخر غير

الذي على بعد عشرات الأمتار فقط مِن هنا، اقترب موسى مِن النار، وفجأة ارتعش جسده بشدّة وهو يسمع نداءً جاءه لا يعرف مِن أين أن...

{بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

– ارتعش موسى بشدّة والصوت يأتيه مِن كلّ مكانٍ في الوادي، غرق جسده في الغرق، عن يمينه في الجانب الغربي كانت توجد شجرة تتلألأ بالخضرة، عاد الصوت الذي لا يُمكن وصفه، ارتجّت له الأرض بالخشوع والرهبة، يأتيه مناديًا...

{يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى}.

خلع موسى نعلَيْه وجسده ما زال يرتعش وينتفض رهبةً، أكمل الله عز وجل كلامه لكليمه موسى عليه السلام...

{وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي. إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى. فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى. وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى. قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى. قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى. فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى. قَالَ خُذْهَا

وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى. وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى. لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى}.

وهكذا تمّ تكليف موسى عليه السلام، بالرسالة مِن قبل ربّ العالمين، وأظهر له الله تعالى الآيتين، العصا الحيّة ويده البيضاء، ثمّ جاء التكليف الذي مِن أجله كان على موسى أن يعود إلى مصر مُباشرة.

{اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى}.

تلك هي الرّسالة المُكلَّف بها أنت يا موسى.

كان موسى هدأ وأيقن أنّه يُكلّم ربّه الخالق عزّ وجلّ، ومِن قبل كان موسى يعرف أنّه حفيد يعقوب وإسحاق وإبراهيم عليهما السلام، تحدَّث مع ربّه قائلًا:

{رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي. وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي. وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي. وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي. هَارُونَ أَخِي. اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي. وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي. كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا. وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا. إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا}.

طلب موسى مِن ربّه أن يُرسل معه هارون أخاه عليه السلام ويجعله نبيًّا. كان هارون الأخ الأكبر لموسى عليهما السلام، وكان معروفًا أنّه حليم هادئ الطّباع.

وكان ردّه عز وجل على نبيّه وكليمه...

{قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ. وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ}.

الآن اتضحت الرّؤيا تمامًا أمام موسى وكان عليه أن يذهب إلى فرعون يدعوه إلى ترك دعوة الألوهية التي يدعو بها لنفسه وأن يعبد الله الواحد الأحد، وأن يتوقَّف عن عذاب واضطهاد بني إسرائيل ويُرسلهم مع موسى وهارون عليهما السلام، عاد موسى يُكمل طريقه إلى مصر ويستعدّ للمواجهة الكبرى مع فرعون.

– عاد موسى عليه السلام إلى مصر، وبعد أن كان خائفًا مُترقّبًا أصبح قويًّا لا يخشى فرعون وهامان وجنودهما، إنّ معه ربه يُقوّيه ويُسانده.

اصطحب موسى أخاه ووزيره هارون عليه السلام، بعد أن أوحى له الله تعالى بالرسالة على وعد لموسى، وذهبا إلى فرعون، وأمام فرعون تحدَّثا وكان الكلام واضحًا:

{إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

نظر إليهما فرعون وقال:

وماذا تريدان؟

ردّ عليه النبيَّان:

{أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ}.

هذه المرة حملت نظرة فرعون الكثير مِن الازدراء وهو يقول لموسى:

{أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ}.

ردّ موسى عليه السلام بمنطقٍ وقوّةٍ:

{قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ. فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ}.

عاد فرعون يسألهما:

{وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ}.

ردّ عليه موسى عليه السلام بكلّ وضوحٍ ويقينٍ:

{رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ}.

نظر فرعون إلى حاشيته وقال:

{قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ}.

أكمل موسى عليه السلام:

{قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ}.

بسخريةٍ أكمل فرعون:

{قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ}.

لكن سخريته واتّهامه لم يُوقفا موسى عليه السلام الذي أكمل:

{قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ}.

أقام موسى وهارون عليهما السلام، الحجج على فرعون مُدّعي الألوهية، في النهاية استخدم تهديده قائلًا:

{لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ}.

نظر إليه موسى مُطوّلًا، كان يريد أن يفحمه ويكشفه أمام أتباعه ف...

{قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ}.

ردّ عليه فرعون:

{قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}.

كانت تلك فرصة موسى عليه السلام وكان ربه قد أيَّده بآيتين:

{فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ}.

شعر فرعون وقومه بالرّعب مِن منظر الثعبان الضخم الذي تحوَّلت إليه عصا موسى، ورغم ذلك فقد كذَّب وأبى أن يُؤمن لموسى وهارون وردّ عليهما:

{قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى}.

وضرب الموعد يوم الزّينة حيث يجتمع الناس جميعًا، واستدعى فرعون سحرته مِن كلّ أنحاء البلاد، ودار الحوار التالي بين موسى وهارون والسّحرة:

{قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى}.

وبالفعل أبطل موسى سحرهم بعصاه التي تحوَّلت إلى ثعبان ضخم التقم حبالهم وعصيّهم، عندها أدرك السّحرة أنّ ما حدث أمامهم ليس مِن أمور السّحر أبدًا لكنّه مَن فعل قوّة أكبر وأعظم مِن السّحر، قوّة ربّ العالمين الخالق الواحد الأحد.

{وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ}.

وهنا غضب فرعون بعنفٍ وتوعّد السّحرة بالقتل، واتّهم موسى بأنّه كبيرهم الذي علّمهم السّحر.

اتهامات جوفاء باطلة لجأ إليها عندما رأى إيمان السّحرة بربّ موسى وهارون.

ظلّ فرعون على كفره واضطهاده لبني إسرائيل وقتل أطفالهم، فأرسل عليه الله تعالى الضّربات السبع.

{وَلَقَدْ أَخَذْنَا آَلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ، فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آَيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آَيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ}.

– لم يكُن لموسى عليه السلام إلا مطلب واحد عند فرعون، وهو أن يترك بني إسرائيل يخرجون معه إلى الأراضي المُقدّسة، لكن فرعون رفض ذلك المطلب تمامًا وأصرّ أن يظلّ بنو إسرائيل في مصر يسومهم سوء العذاب. أرسل الله تعالى على فرعون وآله الضربات المتتالية التي أصابتهم واحدة تلو الأخرى، وبالطّبع جاءت تلك الضربات على مدار

سنين، وكانوا عند كلّ مصيبةٍ يطلبون مِن موسى أن يدعو ربه يرفع عنهم البلاء، فإذا حدث ذلك استكبروا وادّعى فرعون أنّه هو مَن رفع البلاء عن قومه، وأخبرهم أنّه ربّهم الأعلى فسجدوا له.

– جاءت الضّربات السّبع لفرعون وآله على الترتيب التالي:

١–٢– بدأت بالسنين، والمقصود بها الجدب الذي أصابهم والقحط الشديد وتلاه نقص الثّمرات، فشحّ الطعام وندرت ثمرات الأرض وسادت مجاعة قوم فرعون، ولم يستمع فرعون إلى موسى ويُنفِّذ مطلبه، فجاءت الضّربة التالية معاكسة تماما للأولى.

٣– فاض النيل وأغرق الأرض والزرع فاستحالت الزراعة وانعدم المحصول، وأصبح عذابهم مِن فيضان الماء بعد أن كان مِن نقصها.

– هرع آل فرعون إلى موسى فدعا ربه فكشف الضرّ، فتوقّف الفيضان وعاد الناس لزراعة الأرض وتربية الحيوانات وعاد الخير يعمّ الأرض، وعاد موسى يُطالب بإطلاق بني إسرائيل، فرفض فرعون بعناد أيضًا، فجاءتهم الضربة التالية وهي...

٤– الجراد

أسراب مِن الجراد ملأت الأفق، حطَّت على الزرع فأكلت الحبوب والثمار ولم تترك لهم ما يأكلونه، وعاد شبح المجاعة يُهدّدهم فهرعوا إلى موسى، فدعا ربه فرحل الجراد، لكن كفر وعناد فرعون وآله منعهم مِن البرّ بوعدهم لموسى، فعاقبهم الله بالضربة التالية وكانت...

٥- القُمّل الذي انتشر بطريقة بشعة في أجساد وملابس وبيوت القوم بما يحمله مِن أمراض وأوبئة أصابتهم في صحتهم وكادت تفتك بهم، وتكرّر اللجوء لموسى وتكرّر الجحود، فجاءت الضربة التالية وكانت...

٦- الضفادع، أعداد لا تُحصى من الضفادع امتلأت بها الأرض حتى كانت تتقافز في بيوت وآنية وأطعمة آل فرعون، فسبّبت لهم الإزعاج الشديد وضيَّقت عليهم، فذهبوا إلى موسى يعِدونه هذه المرة إذا كشف عنهم البلاء بتنفيذ مطلبه وكشف الله البلاء لكنهم بالطبع لم يُنفّذوا وعدهم.

وجاءت آخر الضربات التي أصابتهم...

٧- الدّم

تحوَّلت مياه النيل إلى دم وكانت آية أكبر وأعظم مِن كل مثيلاتها، فلم يعتَد الناس هذه الآية الرهيبة أبدًا أن تملأ إناءً لتشرب أو تستخدم المياه

لأي سببٍ فتجده دمًا، وكان هذا يحدث لآل فرعون فقط دون بني إسرائيل، الضربة أصابت فرعون وآله بالرعب والفزع، فهرعوا إلى موسى يتوسَّلون إليه فكشف عنهم العذاب وعادت مياه النيل إلى طبيعتها، ولم يرضخ فرعون طلب موسى.

– كانت هذه آخر الآيات وتلاها أمر الله لموسى باصطحاب بني إسرائيل والخروج ليلًا مِن مصر.

اعْتُبر موسى عليه السلام، مِن الأنبياء الخمسة ذوي العزم، ذلك لِمَا لاقاه في أثناء فترة نبوّته مِن عنت وكفر وجحود مِن أعدائه أولًا، فرعون وقومه، ومِن بعد مِن بني إسرائيل أنفسهم كما سنرى.

– ورغم الضّربات السبع التي أصابت فرعون وقومه فإنّه ظلّ على كفره وعنته واضطهاده لبني إسرائيل، على العكس أخذ يُؤكِّد لقومه أنّه إله وله مِلْكُ مصر والأنهار تجري مِن تحته.

– يأس موسى وهارون تمامًا من إيمان فرعون لهما أو ترك بني إسرائيل، هنا دعا موسى ربه:

{وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ}.

وجاء أمر الله تعالى لموسى: {فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ}.

صدر الأمر الإلهي لموسى عليه السلام، وعلى أثره استأذن بنو إسرائيل فرعون في الخروج لعيد لهم، فأذن لهم على كره ومضض (وللعلم فإنّ مَن آمن لموسى وخرج معه ليس كل بني إسرائيل لكن بعضهم، وفضّل الباقون البقاء في ظل الاستعباد والهوان).

– جمعوا حليّهم واستعاروا من حلي قوم فرعون الكثير، وخرجوا ليلًا مُتوجّهين نحو البحر الأحمر.

وعَلِم فرعون بنيّة بني إسرائيل، فجمع جيشه وقرّر أن يتّبعهم، هذه المرة كانت النيّة هي القضاء عليهم تمامًا وإنهاء وجودهم مِن الأرض كلها.

وصل موسى عليه السلام، إلى البحر الأحمر ولحقه فرعون وجنوده، كانوا قلّة ضعيفة لا تملك سلاحًا ولا قوّة، بينما كان فرعون بجيشه وعرباته الحربيّة وأسلحته المدجّجة.

أدرك بنو إسرائيل أنّهم هالكون لا محالة، بينما كانت ثقة موسى عليه السلام لا نهاية لها في ربّه تعالى، لا بدّ أنّه تذكّر وقتها جبل الطور وكلام ربّه له والعصا الثعبان ويده البيضاء.

تذكَّر موسى السّحرة الذين آمنوا به وعذَّبهم وقتلهم فرعون، تذكَّر الجدب والطّوفان والضفادع والدّم والقُمّل والجراد والأوبئة التي أصابت فرعون وقومه، نظر إلى البحر وإلى فرعون وجيشه على مرمى حجر منهم، زاغت أبصار بني إسرائيل وأصبحت قلوبهم هواء، عمّا قليل سيُقضى عليهم جميعًا.

قال بعضهم: {إِنَّا لَمُدْرَكُونَ}

ردّ موسى بثقةٍ مُطلقةٍ لا ذرَّة شك ولا تردّد فيها:

{قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}.

– وفي لحظة جاء وحي الله تعالى لموسى:

{فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ}.

– وبلا تردّد تقدَّم موسى مِن البحر ووجّه وجهه نحوه، بينما ظهره نحو فرعون وجيشه، مدّ يده، رفع العصا، قام بفعل لعلّ كلّ مَن رآه وصف هذا التصرّف بالجنون، لقد ضرب البحر بعصاه.

{فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ}.

– وكانت تلك آية أعظم مِن كلّ الآيات السابقة حدثت أمام أعين بني إسرائيل وفرعون وقومه، إلا أنّ مَن كفر بتسع آيات بيّنات لن يُؤمن بالعاشرة.

انطلق موسى يعبُر الطريق اليابس الذي انشقّ في وسط البحر العظيم قائدًا بني إسرائيل الذين انطلقوا خلفه، ولك أن تتخيّل المَشهد المهيب.

– بنو إسرائيل يقطعون مُسرعين الطريق في قلب البحر، بينما عن يمنيهم ويسارهم ترتفع المياه وتتصارع الأمواج بشكل مهولٍ.

وصل فرعون إلى البحر ورأى الطريق وقد أعماه الغضب والحقد على موسى وقومه والرغبة في القضاء عليهم، فانطلق خلفهم وخلفه جيشه في قلب البحر.

كان بنو إسرائيل يسبقون جيش فرعون بخطواتٍ، انطلقوا مُسرعين حتى لا يُدركهم فرعون، حتى قطعوا البحر، وعند خروج آخر فرد منهم كان فرعون وجيشه في قلب البحر، وهنا جاء أمر الله تعالى ومشيئته.

وعاد البحر كما كان، وأطبق الماء على فرعون وجنوده واجتاحتهم الأمواج كالجبال، فأغرقتهم وقضى عليهم جميعًا.

في لحظة النهاية، قال بعض المُفسّرين إنّ فرعون وهو يغرق في سكرات الموت الأخيرة رأى مقعده في النار، فنادى قائلًا:

{آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ}.

وجاءه الردّ الإلهي:

{آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ}.

ولا تنفع التوبة في سكرات الموت الأخيرة.

– نجا بنو إسرائيل الذين خرجوا مع موسى جميعًا وتجاوزوا البحر ووقفوا ينظرون بأُمّ أعينهم لعذاب الله تعالى وانتقامه مِن مُذلّهم ومُعذّبهم وعدوّهم وهو يغرق، بينما ينسحق جيشه في قلب البحر.

والسّؤال الآن:

إلى أي درجة كان إيمان قوم موسى عليه السلام؟ وإلى أي وقت استمرّ هذا الإيمان بموسى عليه السلام؟

هذا ما سوف نتحدّث عنه غدًا، إنْ شاء الله في الحلقة الأخيرة مِن قِصّة موسى وهارون عليهما السلام.

تجاوز موسى وهارون عليهما السلام، البحر وخلفهما بنو إسرائيل، وأمام الأعين الذّاهلة غير المُصدّقة، غرق فرعون وجيشه في قلب البحر بعد أن انطبق عليهم.

لم يُصدّق بنو إسرائيل أنّهم تخلّصوا مِن جلّادهم إلى الأبد، أغرقه الله تعالى وقضى على جيشه، وأصبحوا أحرارًا مِن استعباده، تحرَّك موسى وهارون عليهما السلام ومعهما الجمع مولين ناحية الأراضي المُقدّسة، ظنّ موسى وهارون أنّهما أدَّيا مُهمّتهما وأنقذا بني إسرائيل، والآن أصبح الطريق مُمهدًا بلا مخاطر للعودة إلى الأراضي المُقدّسة، لكن يبدو أن ما ينتظر موسى مِن قومه كان أكبر وأعظم مما واجهه مع فرعون.

لم تكد تمضي أيام قليلة جدًّا على عبور البحر حتى ظهر قوم موسى على وجوههم الحقيقية، مرّوا على معبد به أشخاص يعبدون أصنامًا، فقالوا لموسى عليه السلام...

{قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ}.

– ذُهِل موسى عليه السلام مِن طلب قومه الذين نسوا في وقت قصير جدًّا منن الله عليهم وآياته التي رأوها بأُمّ أعينهم، ردّ عليهم:

{قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.

– ثمّ عاتبهم موسى عليه السلام، وذكَّرهم بنِعم الله عليهم.

{قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ. وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ}.

انتهى الأمر وأكمل موسى مسيره مع قومه، ثمّ جاء أحد أهم المواقف في مسيرة بني إسرائيل مع موسى عليه السلام.

{وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ}.

صعد موسى عليه السلام، الجبل لميقات ربّه، واستخلف في قومه هارون عليه السلام، تلقّى موسى عن ربّه التوراة والوصايا العشر وهي:

– الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له.

– النهي عن الحلف بالله كذبًا.

– الأمر بالمحافظة على السبت (تفريغه للعبادة فقط)

– الأمر بإكرام الأب والأم.

– معرفة أنّ الله وحده هو الذي يعطي ويمنح.

– لا تقتل.

– لا تزن.

– لا تسرق.

– لا تشهد شهادة زور.

– لا تمدنّ عينيك إلى بيت صاحبك أو امرأته أو عبده أو ثوره أو حماره.

كانت تلك الوصايا التي أنزلها الله تعالى على موسى قبل أن يهبط مُسرعًا إلى قومه.

وهنا يبرز السّامري، أكثر شخصيات بني إسرائيل إثارة للجدل، فبينما كان موسى يتلقّى من ربه شريعته ويُسجّل ما يقوله الله تعالى، أعلمه الله بما فعل قومه، ووردت قِصّته في سورة "طه":

{وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى، قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى، قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمْ السَّامِرِيُّ، فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ

مَوْعِدِي، قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ، فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ، أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً، وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمْ الرَّحْمَانُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي، قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى، قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا، أَلاَّ تَتَّبِعَنِي أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي، قَالَ يَبْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إسرائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي، قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ، قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي، قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً، إِنَّمَا إِلَهُكُمْ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً}.

– عاد موسى عليه السلام مُسرعًا إليهم لمّا أخبره ربّه بما فعلوا وذُهل لما رأى.

عجل ضخم مصنوع مِن ذهب يبرق تحت ضوء الشمس، والقوم التفوا حوله في خشوع يسجدون ويطوفون ويُهلّلون، ألقى موسى بالألواح وقد اعتراه غضب شديد وجذب أخاه هارون مِن لحيته ومن رأسه، فاستعطفه هارون قائلًا إنّهم كادوا يقتلونه عندما حاول منعهم عن عبادة العجل، هنا نفهم أنّ كثيرًا مِن بني إسرائيل عبدوا العجل الذهبي، عندما عَلِم موسى بقصة ما حدث لام قومه بشدّة وذكّرهم بربّهم، فبرّروا له أنّهم كانوا يشعرون بذنب سرقتهم لذهب وحُلي قوم فرعون –لاحظْ ضلالهم شعروا بوزر السرقة ولم يشعروا بوزر الكفر– فأعطوا الذهب للسامري عندما طلبه، وهنا جاءت مقابلة موسى عليه السلام مع...

السامري، الشخصية الغريبة في تاريخ بني إسرائيل، سأله موسى عليه السلام:

– ما خطبك يا سامري؟

– تعلم يا موسى أنّ قومك ضالّون وقد طلبوا منك أن تجعل لهم صنمًا يعبدونه لكنّك عنّفتهم، فلمّا غبت في لقاء ربك، أخذت منهم ذهب قوم فرعون فصنعته لهم عجلًا، ولقد كنت في البحر رأيت فرس جبرائيل الملاك يسير أمامي فقبضت قبضة مِن آثارها، ولمّا ألقيتها على العجل

صار له خوار، ففتن بني إسرائيل وعبدوه وقدّروني وعظّموني واعتبروني نبيًّا لهذا الإله.

– إذًا فقد فعلت ذلك لتكون لك هيبة وعظمة عندهم؟

– نعم.

– إذًا اذهبْ فإنّ لك في الحياة أن تقول لا مساس، وليعتزلنك كل بني إسرائيل عزلةً تامّةً ولتعيشن وحيدًا لا تجد مَن يُكلّمك، أمّا في الآخرة فإنّ لك موعدًا لن تُخلفه مع ربك فيعاقبك على فعلتك، لكن قبل ذلك انظر إلى إلهك الذي عبدت لترى ما نفعل به.

أحضر موسى والمؤمنون مِن قومه العجل الذهبي فأحرقه حتى أصبح ذهبًا سائلًا فألقاه في اليم، وهكذا انتهى عجل بني إسرائيل الأوّل.

أمّا الذين عبدوا العجل فكان عقابهم مِن ربّهم أنّهم تقاتلوا وقتلوا أنفسهم بما كسبت أيديهم.

– بعض التفسيرات تقول إنّ السامري صنع عجلًا مُجوّفًا إذا مرّ الهواء خلاله أصدر خوارًا ففتن بني إسرائيل، وأنّ قصّة رؤيته فرس جبرائيل إنّما ساقها تبريرًا لموسى وهذا غير مُؤكَّد فلا يعلم إذا كان فعلًا رأى الملاك جبرائيل أو فرسه أم لا.

– بعض التفاسير ذَكَرَت أنّ الله أصاب السامري بمرض جلدي فاعتزله الناس حتى مات وحيدًا.

انتهت قضية عبادة العجل، وواصل موسى عليه السلام وقومه المسير حتى اقتربوا من الأراضي المُقدَّسة في فلسطين.

– كانت رحلتهم اقتربت مِن نهايتها.

وعلى مشارف أرض الشام اختار موسى مِن قومه اثني عشر نقيبًا وأرسلهم لكي يعرفوا أخبار الكنعانيين سكان فلسطين ويعودوا إليه، فلمّا ذهب الرجال هناك وجدوا أنّ سكان فلسطين قوم جبّارون ذوو قوة وبأس. فلمّا عادوا إلى بني إسرائيل ظلّوا يثبطون همّتهم ويخوّفونهم مِن قتال الكنعانيين، إلا رجلان منهم هما فقط مَن كانا يُحاولان تشجيعهم ودفعهم للقتال مع موسى وهارون ودخول الأرض المُقدّسة، لكن النتيجة كانت أن قالوا لموسى لمّا دعاهم لحرب الجبّارين:

{قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىَ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ

أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِين}.

وجاءت الأربعون سنة تيهًا في الأرض، فكانوا يسيرون طوال النهار بلا هدى، لا يعرفون إلى أين يذهبون وأحيانًا بعد قطع مسافات طويلة يجدون أنفسهم عادوا إلى النقطة التي انطلقوا منها، لم يعودوا يعرفون طريق الأرض المُقدّسة ولا في أي اتجاهٍ يسيرون.

كانت حكمة الله في مدّة التوهان أن يهلك القوم الفاسقين الذين غضب عليهم موسى عليه السلام، ويُنشِئ جيلًا جديدًا تربّى على يد موسى وهارون ويوشع بن نون والصالحين منهم.

وبالفعل ظلّوا تائهين في الأرض أربعين سنة بالطبع لا يُمكن تحديد مكان التيه تمامًا هل كان في سيناء أم كان في الشام أم كان بينهما، فقد كانوا كمَن يدور في حلقة مفرغة ويعود دائمًا لنقطة الصفر.

وفي تلك الأثناء بينما كان هارون بصحبة أخيه موسى مات، ولمّا عاد موسى وحده إليهم اتّهموه بأنّه قتله لأنّهم يُحبّونه حتى أظهر الله الحقّ وبرّأ موسى عليه السلام.

وبعد عام مِن وفاة هارون مات موسى أيضًا عليه السلام، وخلّف فيهم فتاه يوشع بن نون الذي قادهم إلى بيت المقدس.

وحتى نعرف مدى ما عاناه موسى عليه السلام، يكفي أن نعرف أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم، كان إذا ما آذاه قومه يقول: "قد أُوذي موسى بأكثر مِن ذلك فصبر".

– كانت تلك قِصّة نبي الله موسى عليه السلام باختصارٍ.

نبيّ لبني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام

مات موسى وهارون عليهما السلام في التيه، وخرج بنو إسرائيل مِن التيه، جاء بعد موسى وهارون أنبياء منهم يوشع بن نون فتى موسى الذي أصبح نبيًّا وقادهم لكي يدخلوا الأراضي المُقدّسة، ومات يوشع بن نون وجاء أنبياء آخرون وماتوا أيضًا.

– تدهور الحال ببني إسرائيل وضاعت منهم التوراة وضاع منهم تابوت العهد وتقاتلوا واستضعفوا في الأرض وطردوا مِن ديارهم، وأصبح حالهم يُرثى له.

– أرسل لهم الله تعالى نبيًّا لهم (أورد في التوراة أنّ اسمه أشموئيل والاسم عبري بمعنى: سمع الله دعائي، ذلك أنّ والدته كانت سيّدة صالحة مِن سبط لاوي بن يعقوب ودعت الله تعالى أن يرزقها ولدًا ذَكَرًا صالحًا).

– ذهب إليه ملأ من بني إسرائيل –أكابر القوم وقادتهم– وقالوا له:

ابعثْ لنا مَلِكًا يجمعنا تحت حكمه كي نقاتل في سبيل الله ونستعيد مجدنا وقوّتنا ونلمّ شملنا.

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}.

– ردّ عليهم نبيهم، وكان أعلم بقومه وبما يُفكّرون، ونواياهم:

{قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا}.

فأجابوا النبي بكلّ ثقةٍ:

{قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا}.

– بعد حين جاءهم جواب نبيهم:

{وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا}.

– ما أن أخبرهم النبي بملك طالوت عليهم، حتى بدأت بوادر الغضب والعصيان والرفض.

لم يكُن طالوت مِن سبط لاوي وفيهم النبوّة ومنهم موسى وهارون عليهما السلام، ولم يكُن مِن سبط يهوذا وفيهم الملك ومنهم داوود وسليمان عليهما السلام، كما سنعلم في قصة داوود، ولم يكُن أغنى رجل فيهم وكان ردهم...

{قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ}.

– كان النبيّ يتكلّم بإرادة ووحي الله تعالى ويُنفّذ مشيئته، فقال لهم:

{قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}.

هذه إرادة الله تعالى، وطالوت قد ميّزه الله عنكم بقوّة الجسد وغزارة العلم.

ردّوا عليه: وهل أرسل الله معه آية لتُؤكّد كلامك أنه أحقّ بالمُلك علينا؟

– ردّ النبي الكريم الذي لا ينطق عن الهوى:

{وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}.

ومِن قبل كان أعداؤهم استولوا على كتابهم المُقدّس التوراة، كما ضاع تابوت العهد منهم، أما قصة تابوت العهد وأهميّته لديهم فتعالوا نتحدَّث عنها بسرعةٍ.

– لم تكُن الآيات السابقة هي الوحيدة التي ذَكَرَت التابوت لكن هناك آية أخرى تتحدَّث عن حدث تاريخي يسبق بنحو مائة وخمسين عامًا وهي:

{إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ}.

والتساؤل هو:

هل التابوت المذكور في الآيتين واحد؟

– أغلب الظنّ أنّه هو وذلك لعدة دلائل، فالتابوت كان له عندهم أهميّة وقدسية كبيرة، فهو الذي أنجا الله فيه نبيّهم وقائدهم ومُخلّصهم موسى عليه السلام، مِن الذبح على يد جنود فرعون.

– كان التابوت يحتوي على بقية مما ترك آل موسى وآل هارون، وقد ورد أنّ فيه عصا موسى وبعض الألواح التي كتبت عليها التوراة وعمامة هارون، وقيل إن فيه طِستًا مِن ذهب، وجاءت به الملائكة ووضعته في بيت طالوت.

ومجرّد وجوده يبثّ في نفوس بني إسرائيل السكينة والاطمئنان والثقة في النصر، فهو علامة مهمّة جدًّا لهم على نجاة ونصر الله لنبيّهم مِن قبل، ولذلك يُرجّح كون التابوت هو تابوت موسى عليه السلام في اليمّ.

– هناك رواية أخرى تقول بأنّ التوراة نقشت على لوحين حجريين ولحماية اللوحين والسماح بحملهما تمّ صنع وزخرفة صندوق مصنوع مِن خشب السنط بزخارف ذهبية وحلقتين مِن الذهب على جانبيه، ونقش لاثنين مِن الملائكة الكروبيون (حملة العرش) فوق قمّته، أمّا غطاء الصندوق فكان يُسمّى "غطاء التكفير" أو "مقعد الرحمة"، وقد رافق الصندوق موسى عليه السلام وبني إسرائيل، وكان يجلب لهم النصر أينما ذهبوا.

– بدأ طالوت يعِد جيشًا مِن بني إسرائيل لمواجهة جالوت المعروف عنه قوّته وشراسته في الحرب وكان هو عدو بني إسرائيل، تحرَّك طالوت بجيش بني إسرائيل لمواجهة أعدائهم، قطعوا صحاري وجبالًا، بدأ الإرهاق والعطش ينال منهم، هنا كان اختبار مِن الله تعالى لهم:

{قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ}.

قال ابن عباس وكثير مِن المُفسّرين:

هذا النهر هو نهر الأردن، أمر طالوت جنوده عند هذا النهر –عن أمر نبي الله له، عن أمر الله له– اختبارًا وامتحانًا، أن مَن شرب مِن هذا النهر فلا يصحبني في هذه الغزوة إلا مَن لم يطعمه إلا غرفة في يده، لكن أغلب الجيش شرب منه وخالف أمر النبي شموئيل والملك طالوت: {فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلا مِنْهُمْ}.

– وهكذا لم يتجاوز النهر إلا طالوت وقلّة معه مِن بني إسرائيل لم يشربوا من النهر، وبعد أن تجاوزوا النهر ورأوا جيش جالوت وعددهم وقوّتهم قالوا لطالوت:

{فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ}.

فردّ الذين آمنوا بالله إيمانًا حقًّا مِن جيش طالوت:

{قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}.

هنا يبرز دور نبي آخر في القصة وهو داوود عليه السلام، لكن هذه قصة أخرى.

-15-

داوود عليه السلام

– عبر مَن تبقّى مع طالوت الملك النهر وذهبوا لمواجهة جالوت وجنده، كانوا قلّة بينما كان جالوت في جيشه القوي، عندما رأى جنود طالوت جالوت وجيشه قالوا:

{لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده}.

بينما قال مَن آمن منهم بالله حق الإيمان:

{كم مِن فئةٍ قليلةٍ غلبت فئة كثيرة بإذن الله}.

– أصبح الأمر واقعًا لا فرار منه، الجيشان متواجهان، هنا خرج جالوت يتباهى بقوّته أمام طالوت وجنده، مقاتل ضخم، مُتمرّس، لا يشقّ له غبار، مدجج في دروعه الحديدية، مُسلّح بفأسه وخنجره، طلب من يبارزه مِن جيش طالوت.

مُجرّد رؤية الرجل جعلت الرّعب يدبّ في قلوب بني إسرائيل، لم يجرؤ أي مقاتل منهم على التقدُّم لمبارزة جالوت، وهنا تقدَّم مِن طالوت أحد رجال جيشه يطلب مبارزة جالوت، وكان هو..

داوود بن أبشا ينتهي نسبه عند يهوذا بن يعقوب عليه السلام.

لم يكُن في الأصل جنديًّا لكنه كان راعي غنم، صغير السنّ والجسم، لذا أشفق عليه طالوت ورفاقه في الجيش، إلا أنّ إصرار داوود وقوّة إيمانه جعلا طالوت يعده بأن يكون قائدًا لجيش بني إسرائيل ويزوّجه ابنته لو قتل جالوت.

– ظنّ الكلّ أنّ داوود لن يستغرق في يد جالوت دقائق حتى يمزّقه، إلا أن داوود كان مؤمنًا حقًّا بالله تعالى، وكان يعلم أنّ قوة إيمانه تلك أقوى بمراحل مِن قوّة جالوت الجسمانية وسلاحه، لذا تقدّم بثقة –بعد أن استأذن ملكه طالوت– يقاتل جالوت.

لم تكُن لدى داوود خبرة في القتال ولا كان لديه سيف ولا دروع، بل كان كل ما معه مقلاعًا وحجرًا وإيمانًا قدر الجبال.

نظر جالوت بسخريةٍ واستهزاء لذلك الراعي الصغير الذي تقدّم لقتاله، بينما كان داوود عليه السلام، يضع حجرًا قويًّا في مقلاعه وينظر إلى جالوت بتركيز ويُسمّي الله ويُطلق الحجر.

استقرّ الحجر في جبهة جالوت بكل عنفٍ، وأمام أعين الجيشين الذّاهلة سقط جالوت أرضًا دون حراك، وقد زُهقت روحه، تقدّم منه داوود الواثق

بالله وأخذ سيفه ورفعه عاليًا بعد أن تأكّد مِن موته، ولا يحتاح الباقي إلى توضيحٍ.

جيش قتل قائده الذي لا يقهر مِن راعٍ صغير لا يفقه شيئًا عن فنون القتال كيف يكون شعور باقي الجنود؟

انتشر الرعب في جيش جالوت وتفرَّق فتقدَّم منهم بنو إسرائيل.

{فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ}.

– وبين ليلة وضحاها، أصبح داوود عليه السلام أشهر رجل في بني إسرائيل.. قائد الجيوش وزوج ابنة طالوت الملك.

لم يكُن داوود يهتمّ كثيرًا بكلّ ذلك، كان فتًا مؤمنًا حقًّا بالله، ميّز الله تعالى داوود بصوتٍ لا يضاهي جماله صوت بشري آخر، كان يستخدم صوته ذلك في تسبيح الله وتمجيده في كلّ أوانٍ ومكانٍ حتى أنّ الله تعالى قال عنه:

{وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ}.

تحتاج الآية الكريمة إلى تأمّلٍ عميقٍ.

لهذه الدرجة كان داوود عليه السلام، خاشعًا صادقًا في تسبيحه لله تعالى حتى أنّ الطير يفقه تسبيحه ويسبّح معه، بل والجبال التي هي صخر بلا روح ولا عقل تسبّح معه.

وصل داوود عليه السلام، لمرحلة لم يصل إليها أحد في زمانه مِن الشفافية والتجرّد في حُبّ وعبادة الله تعالى.

اختاره الله نبيًّا وأنزل عليه كتابًا مِن السماء:

{وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا}.

– كان داوود عليه السلام، يفتح كتابه ويقرأ منه ويسبّح ربه تعالى، فتسبّح معه الجبال وتحشد له الطير:

{وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ. إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ. وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ}.

كما كان عليه السّلام يصوم يومًا ويُفطر يومًا أبد الدهر طلبًا لرضا ربه سبحانه وتعالى، أحبّه الله عز وجل وعلَّمه لغة الطّير والحيوانات وأيّده بمعجزة وراء معجزةٍ، فكان إذا ما سبّح فهم تسبيحه كلّ ما في الطّبيعة وسبَّح معه.

– أصبح داوود عليه السلام، مَلِكًا على بني إسرائيل بعد موت طالوت، كانت مشكلة بني إسرائيل كثرة الحروب التي يخوضونها مع أعدائهم، وكانوا يحتاجون إلى دروع حديدية تقيهم ضربات أسلحة الأعداء، وكان داوود عليه السلام يُفكِّر في الأمر كثيرًا حتى ألهمه الله تعالى بالحل... {وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ}.

– هناك تفسير للآية بأنّ الحديد كان معدنًا ليّنًا في يد داوود عليه السلام، يشكّله كما يشاء ويصنع منه دروعًا لجنده.

وتفسير آخر بأنّ داوود عليه السلام، اكتشف إمكانية انصهار الحديد وسهولة تشكيله بالنار، وبذلك استخدمه هو وجيشه في صناعة الدروع والأسلحة التي يحتاجون إليها في الحروب.

وهكذا لم يدخل داوود حربًا في حياته إلا كسبها.

لم تزِد الانتصارات والملك والقوّة داوود عليه السلام، النبي الملك، إلا شكرًا لله وتقرّبًا منه وطاعة له.

– نسجت الأساطير والأكاذيب حول داوود عليه السلام وملكه مِن بني إسرائيل أنفسهم، وكان مِن أشهر القصص التي أوردوها قصّة اشتهائه

لزوجة قائد عنده رآها تستحمّ فوق سطح بيتها، فأرسل هذا القائد إلى الحرب حتى قُتِل فتزوّجها داوود.

– حاشا لله أن يأتي هذا التصرّف مِن نبيّ كريم تسبح معه ذرّات الرمال لله تعالى، القصّة كلها هرطقة وافتراء على نبيّ الله.

– غير أنّ أكثر ما أحزنني، بشكل شخصي، وجعلني أشعر بالسوء أن أقرأ تلك القصّة الكاذبة في رواية كتبها الكاتب عبدالحميد جودة السحار، الذي كَتَبَ كثيرًا جدًّا في التاريخ الإسلامي، الرواية بعنوان "وعد الله وإسرائيل" ومع الأسف أورد فيها تلك القصّة دون تحقّق أو مراجعة.

– مات داوود النبي الملك عليه السلام، والذي قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"أفضل الصّيام صيام داوود، كان يصوم يومًا ويُفطِر يومًا، وكان يقرأ الزبور بسبعين صوتًا، وكانت له ركعة في الليل يبكي فيها نفسه ويبكي ببكائه كلّ شيء ويُشفى بصوته المهموم والمحموم".

– مات داوود عليه السلام، بعد أن وضع قواعد المسجد الأقصى في القدس يعبد فيه الله، ومِن بعده أكمله ابنه سليمان عليه السلام.

– لم يشعر بنو إسرائيل بحزن وجزع مِن بعد وفاة موسى وهارون عليهما السلام كما شعروا يوم مات داوود عليه السلام.

وفي جنازته كانت الشمس حامية، أحرقت الناس، وقتها تقدّم ابنه وأشار إلى الطير طالبًا منها أن تظلّ الناس مِن الشمس ففعلت.

وكان هذا أوّل ما رآه بنو إسرائيل من معجزات ابن داوود وهو النبي الملك سليمان عليه السلام، ولهذا قصّة أخرى.

حياة - hayahbook

-16-

سليمان عليه السلام

احتشد عشرات الآلاف مِن بني إسرائيل على الأرض، واحتشدت الطير في السماء والتي كانت تسبّح مع داوود عليه السلام، في مشهد مهيب لا يتكرَّر كثيرًا في التاريخ، مشهد وفاة أحد أعظم أنبياء بني إسرائيل، الذي نقلهم مِن مُشرَّدين ومُستضعفين ومهزومين إلى قوّة لا يستهان بها وجعل لهم مكانة وهيبة بين الأمم. اشتدّت حرارة الشمس حتى أَذَت المُشيّعين، وهنا تقدَّم سليمان عليه السلام وأشار إلى الطير في السماء أن تظلّ المُشيّعين ففعلت، وكانت تلك أوّل معجزة يراها بنو إسرائيل مِن سليمان النبي بن داوود النبي عليهما السلام.

{وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ}.

– ورث سليمان عليه السلام، النبوّة والمُلك عن أبيه داوود عليه السلام، ورث مملكةً قويةً وجيشًا قويًّا لم يتلقَّ في عهد داوود أي هزيمة، في الواقع لقد كان عصر داوود وسليمان عليهما السلام عصرًا ذهبيًّا غير مسبوق ولم يتكرَّر في تاريخ بني إسرائيل.

كان سليمان عليه السلام مثل والده، نبيًّا مُطيعًا لربه ساعيًا في الأرض بالعمارة والخير، مقيمًا شرع الله تعالى في بني إسرائيل، محاربًا للكفر والكافرين في مكان مدحه ربّه قائلًا:

{وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ ۚ نِعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ}.

– وكان لسليمان عليه السلام دعوة لربّه:

{قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ}.

واستجاب الله تعالى لنبيّه سليمان ووهبه مُلكًا لم ينبغِ لأحدٍ مِن بعده، فالله تعالى يعلم أن نبيّه سليمان ليس طامعًا ولا طامحًا لمُلكٍ مِن أجل سُلطة وجبروت ومالٍ، لكنّه كان يريد أن ينشر رسالة التوحيد في كلّ أنحاء الأرض على قدر ما يستطيع.

– وقد امتلك سليمان عليه السلام، جيشًا هو الأقوى في التاريخ ولا يمكن تكراره إطلاقًا، كان جيش سليمان عليه السلام، يتكوّن مِن جنوده البشر بالإضافة إلى جنودٍ مِن الجنّ والشياطين.

{وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ. يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ

كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ۚ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ}.

– وهب الله تعالى لسليمان عليه السلام، القدرة على التحكم في الجن والشياطين، فكان يُسخّرهم في أعمال عمارة الأرض وفي بنيان البيوت والقصور والقدور وشقّ الطّرق وغير ذلك مِن أعمال تُمهّد للناس السّكن والحياة في الأرض، ومنهم كذلك مَن يغوصون في أعماق البحار فيأتونه بما يريد.

– كما كان يُسخّرهم للحرب في جيشه الذي لا يُقهر، ومَن كان منهم يُحاول أن يتمرَّد عليه، كان سليمان عليه السلام يُسلسله ويُعذِّبه.

– وكان عند سليمان سلاح آخر غير مسبوقٍ في تاريخ البشرية وهو الطيور التي كان سليمان يُجيد لغتها كما كان يُجيد لغة الحيوانات، وكلنا نعلم قصّته وجيشه مع النمل التي أوردها القرآن الكريم، كانت الطّير تأتيه بالأخبار مِن كل أنحاء الأرض.

– كُلنا يعرف قصّة الهدهد الذي تغيَّب فسأل عنه سليمان عليه السلام، فجاء يُخبره عن قصّة ملكة سبأ التي آتاها الله الملك والقوّة، ورغم ذلك فقد كانت كافرة به، كانت وقومها يعبدون الشمس، قام سليمان بكتابة

رسالة لملكة سبأ، رسالة مُختصرة قصيرة، كلمات معدودات لكن لها دلائل كثيرة جدًّا، طار الهدهد إلى قصر ملكة سبأ وألقى رسالته، فتحتها الملكة وجمعت وزراءها وحاشيتها وقالت:

{إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ}.

فقط تلك الكلمات البسيطة:

{أتوني مسلمين}.

لم يكُن سليمان يبغي في الأرض الفساد ولا يطلب مجدًا شخصيًّا، لم يرد إلا نشر دين الله.

كانت الملكة سمعت بسليمان وملكه وجيشه وخشيت أن يغزو مملكتها ويسقطها ويُدمّرها، فأرسلت له هدية مِن الذهب قيّمة جدًّا.

وذهب جنودها بالهدية، ونادى سليمان عليه السلام، بحشد جيوشه، دخل رُسل الملكة قصر سليمان عليه السلام، وسط انبهار وذهول، كانت مملكة سبأ قوية ثريّة، ذات جيش قوي وبأسٍ شديدٍ، وكانوا يسمعون عن سليمان وقوّته لكنهم أبدًا لم يتوقّعوا هذه القوّة المُذهلة في جيش سليمان، ولا هذا الثراء الذي لا مثيل له، فقصر سليمان عليه السلام كان مُرصّعًا

بالذهب والمجوهرات والأحجار الكريمة التي جاءت مِن شتى أنحاء الأرض، أرضه مِن زجاج شفّاف تحسبه ماء.

تضاءلت الهدية القيّمة في عيون رسل ملكة سبأ لمّا شاهدوا بأنفسهم مملكة سليمان عليه السلام وقصره والذي رفض الهدية، وأعلن الحرب على سبأ وأخبر الرّسل أنه قادم بجيوشه لغزوهم.

– وكان قرار الملكة أن تذهب بنفسها لسليمان في قصره تفاديًا للغزو وطلبًا للسلام، ولمّا وصلت الملكة إلى مملكة سليمان ودخلت قصره انبهرت بقوّة وبأس وثراء المملكة الذي لا يُقارن، ليس هذا فقط لكنها انبهرت أيضًا بقوّة إيمان سليمان عليه السلام، وعبادته لله تعالى وعدم تكبّره ولا تعاليه رغم كل ما هو فيه.

في النهاية أدركت أنّها ظلمت نفسها بعبادة الشمس وأسلمت مع سليمان.

– غير أنّ جيش سليمان ذلك غير المسبوق في تاريخ الأرض كان يخلو مِن عنصر مهمّ، استخدم في كلّ الجيوش في ممالك الأرض السابقة على سليمان وهو...

الخيل.

– كانت الخيل مِن أهمّ أسلحة الجيوش في الحرب، وكان سليمان عليه السلام يستعدّ لحرب مهمّة وراح يستعرض الخيل والجنود حتى كادت تفوته الصلاة، انتبه مُسرعًا لوقت الصلاة فسجد لله شكرًا وأقام صلاته ومِن وقتها قرّر الاستغناء عن الخيل في الحرب:

{إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ. فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ. رُدُّوهَا عَلَيَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ}.

– لكنّ الله عوّضه سلاحًا أقوى وأعظم كثيرًا مِن الخيل وهو الرّيح.

{فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ}.

غير أنّ سليمان عليه السلام تعرّض لفتنة كبيرة في حياته...

{وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ}.

– وفي تفسير تلك الفتنة هناك الكثير مِن القصص المكذوبة والمفتراة على سليمان عليه السلام، منها أن له 700 زوجةٍ وأنّه طاف بهنّ جميعًا في ليلة واحدة، وكانت نيّته أن يحملن جميعًا ويلدن له أبناء يُجاهدون معه في سبيل الله، غير أنّ سليمان لم يُقدِّم مشيئة الله فلم تحمل أيّ مِن زوجاته إلا واحدة له ولدت له غلامًا مُشوّهًا ألقوه على كرسيه.

– ومنها أنّ شيطانًا مِن الجن خدع سليمان عليه السلام، وأخذ منه خاتم الملك الذي فيه كل قوّته وألقاه في قلب البحر وجلس على كرسيه أربعين يومًا حتى وجد سليمان الخاتم في بطن سمكة.

– بالطّبع كلها خرافات وأكاذيب على نبي الله، وأقرب التفاسير للصحة هو ما أورده الفخر الرازي بأنّ سليمان عليه السلام، أصابه مرضًا شديدًا احتار فيه أطباء المملكة كلها ولم يعرف له علاج إِنْسِيّ ولا جِنّيّ حتى جلس على كرسيه جسدا كأنَّه جثة لا حياة فيها، وكان سليمان طوال الوقت يسبّح الله ويستغفره ويستجيره ولم ييأس لحظة مِن رحمة الله حتى شفاه الله تعالى وعاد إلى صحته وملكه ومملكته كما كان مِن قبل.

– أوردت التوراة افتراءات وأكاذيب لا حدود لها على نبي الله سليمان، منها أنّه كفر وعبد الأصنام واتّهم سليمان بالسحر، فقد روّج شياطين الجن وأوحوا لأوليائهم مِن شياطين الإنس أن ينشروا بين الناس أنّ سليمان عليه السلام كان يُسخّرهم بالسحر، وأكاذيب أخرى وافتراءات على نبي الله عليه السلام، ويكفي أن الله تعالى قد برّأه مِن كل ذلك في آيةٍ واحدةٍ:

{وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ}.

– يُذكر أنّه مِن أهمّ أعمال سليمان عليه السلام، أنّه أكمل بنيان مسجد لله في أورشليم والذي كان داوود عليه السلام بدأ فيه، بناه سليمان وزيّنه على أفضل ما يُمكن، جعل الجنّ يحضرون له الأحجار والأخشاب والخامات مِن كل أنحاء العالم حتى أكمل هذا المسجد العظيم وزيّنه بالأحجار الكريمة حتى أصبح تُحفة معمارية لا يضاهيها بناء آخر على وجه الأرض.

ظلّ هذا المسجد قائمًا حتى خرّبه ودمّره ونهبه نبوخذ نصر عند اجتياح الإمبراطورية البابلية لمملكة يهوذا بعد هذا التاريخ بنحو خمسمائةٍ عام.

– في النهاية مات سليمان عليه السلام مُتّكأ على عصاه ولم تعرف الشياطين التي كان يسخّرها أنّه مات إلا بعد أن أكلت دودة الأرض العصا فسقط جسده، وذلك كان درسًا قاسيًا لهم وتوضيحًا للناس أنّهم لا يعرفون الغيب ولو كانوا يعرفون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين، كما وصف القرآن الكريم.

– هناك تفاصيل أخرى في قصّة سليمان عليه السلام، لكن اكتفينا بالأحداث الرئيسية فيها فقط.

تمّت.

ملاحظة:

تعتبر مملكة سليمان عليه السلام، مِن الألغاز التاريخية الأكثر غموضًا على الإطلاق، فلا أحد يعرف أين ذهب قصر سليمان المُذهل ولا أين ذهبت ثروات مملكته ولا كيف انتهت تلك المملكة بشكل غريب.

أمّا عن المملكة نفسها فهناك غموض غير طبيعي يحيط بها، تاريخيًّا كان حُكم سليمان عليه السلام، في القرن العاشر قبل الميلاد، وقد ذكر أنّه مَلَك الأرض بينما يذكر التاريخ أنّه في تلك الفترة كان في مصر المجاورة مملكة قوية يحكمها شيشنق وأسرة مِن الحُكّام الليبيين الغزاة وليس هناك أي ذكرٍ لحكم أو لعودة لبني إسرائيل إلى مصر بعد خروجهم مع موسى عليه السلام، أمّا شرق مملكة سليمان في نفس التاريخ كانت الإمبراطورية الآشورية قائمة وفي أوج ازدهارها وقوّتها، أي أن ملك بني إسرائيل، تاريخيًّا، لم يصل إلى العراق.

وكما ذكرت فهناك غموض كبير جدًّا في تلك الفترة الزمنية التي لم تشرق عليها الشمس حتى الآن ويبدو أنّ أسرارها لم تكشف بعدُ.

hayahbook - حياة

-18 /17-

زكريا ويحيى عليهما السلام

كان هذا الزّمن حقًّا زمنًا غريبًا. تسكنه المتناقضات بشكل صادمٍ، فبينما وأنت في المسجد العظيم الذي بناه داوود وسليمان عليهما السلام في أورشليم ثمّ هدمه نبوخذ نصر ثمّ عاد بنو إسرائيل يُرمّمونه ويُعيدونه إلى سابق عهده، تجد فيه الإيمان الواضح الجلي بالله تعالى، تُقام فيه الصلوات والتعبُّد على أفضل ما يكون.

– وعلى مرمى حجر منه تجد اليهود في أحيائهم وحوانيتهم منغمسين في المعاصي والموبقات التي يصل بعضها إلى حدّ الكفر بالله.

كان هذا العصر يشهد وجود نبي مِن أنبياء بني إسرائيل هو زكريا عليه السلام، وكذلك عالم جليل يلاقي كل الاحترام والتوقير، اخْتِير ليؤمّ الناس في الصلاة في المسجد هو عُمران عليه السلام.

لم يكُن لعمران ولد وتمنّت زوجته أن تلد، وحقّق الله لها أمنيتها وعندما حملت امرأة عمران عليه السلام، فرحت فرحًا شديدًا بحملها ووهبت ما في بطنها لخدمة المسجد طوال حياته.

{قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}.

– كانت زوجة عمران تظنّ أنّ ما في طنها ولد فلمّا أنجبت أنثى...

{فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا}.

وشاء الله تعالى أن تُنجب زوجة عمران فتاة تكون خير نساء العالمين.

مريم ابنة عمران عليها السلام، لكن عمران مات وأصبحت المشكلة مَن يكفل ابنته.

تسارع تلاميذه في المسجد وكبار العلماء الذين تتلمذوا على يديه لكي يكفلوا ابنة أستاذهم وعالمهم، وكذلك تدخّل زكريا عليه السلام في الأمر، في النهاية قرّروا أن يجروا قرعة على مَن يكفل مريم.

ووقع الاختيار على زكريا عليه السلام، وكان سعيدًا جدًّا بذلك.

{وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا}.

– كانت زوجة زكريا أخت زوجة عمران أو أنّ زوجة عمران هي خالة زوجة زكريا، وكان زكريا عليه السلام كلّما دخل المسجد على مريم وجد عندها رزقًا وطعامًا وفاكهةً ليست في أوانها...

{كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}.

وقتها يذكُر زكريا عليه السلام رحمة الله ورزقه، كان الرّجل طعن في السّنّ وأبيضّ شعره إلا أنّه كان بلا ولدٍ، فقد كانت زوجته عاقرًا وفي لحظة دعا ربه.

{ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا. إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا. قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا.وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا. يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا}.

كانت دعوة زكريا عليه السلام، لربّه أن يهبه غلامًا يرث مِن العلم والنبوّة ويرث آل يعقوب، وقد ورد أنّ زكريا يعود نسبه إلى داوود عليه السلام الذي يعتبر مِن سبط يهوذا بن يعقوب عليه السلام، ويؤمّ الناس ويكون

لهم مُعلّمًا ومُرشدًا، وقد خشي أن تقع إمامة الناس في يد مِن لا يستحقّ، فاستجاب له الله تعالى...

{يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا. قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا. قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا}.

طلب زكريا مِن ربّه أن يجعل له آية على أن زوجته حملت، وكانت الآية أنّه وقتها لن يستطيع أن يتكلّم مع الناس ثلاث ليالٍ متتالية، لن ينطق لسانه.

وبالفعل جاء يوم وجد زكريا عليه السلام، نفسه لا يستطيع النطق مع عدم وجود أي علةٍ به وقتها فهم آية ربه، خرج فرحًا على قومه يشير إليهم أنّ يُصلّوا ويُسبّحوا لله بُكرة وعشيًا.

{قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ۚ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا}.

– ووُلد لزكريا عليه السلام الولد وكان كما وصفه ربه تعالى:

{يَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ}.

منح الله تعالى لزكريا يحيى عليهما السلام.

ومنذ طفولته كان يحيى مختلفًا عن كل أقرانه، كان يُطعم الحيوانات والطيور مِن طعامه رحمةً بها.

كان يحيى نبيًّا ليس له شبيه ولا مثيل مِن قبل، كان نموذجًا في النسك والزّهد والحُب الإلهي الذي أتاه الله له والحنان الذي غمر كل شيء حوله.

كان يحيى عليه السلام يمتلئ ويفيض حُبًّا لكلّ الكائنات، أحبَّه الناس والطيور والوحوش في البراري.

– خرج محمد رسول الله صلّى الله عليه وسلم، على أصحابه يومًا وهم يذكرون فضل الأنبياء فقالوا:

إبراهيم خليل الله.

وموسى كليم الله.

وعيسى كلمة الله.

فلمّا رآهم لا يذكرون يحيى عليه السلام قال: أين الشهيد ابن الشهيد؟ يلبس الوبر ويأكل الشجر مخافة الذّنب، أين يحيى ابن زكريا؟

كان يحيى عليه السلام، عاصر السيّد المسيح عليه السلام، وكان أوّل مَن أوّل مَن آمنوا به، وقد كان الاثنان ابنَي خالة أو أن والدة يحيى عليه السلام هي خالة السيّدة مريم عليها السلام.

– عُرف عن يحيى عليه السلام حُبّه للعلم منذ طفولته فلمّا أصبح صبيًّا أتاه الله الحُكم والحكمة.

{يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا}.

كان أمر الله له أن يدرس كتاب الشريعة بإتقانٍ وإحكامٍ حتى أصبح أعلم الناس وأشدّهم حكمة في زمانه وأصبح يقضي بينهم على صغره.

وكان كُلّما ازداد علمًا ازداد حُبًّا ورحمةً وحنانًا بوالديه وبالناس وبكلّ الكائنات.

كان يحيى عليه السلام، يستغفر للناس ويدعوهم إلى التوبة ويأخذ البعض ليغسلهم في نهر الأردن حتى يغسلوا أنفسهم مِن الداخل مِن الذنوب، ولذا سُمّي عند أهل الكتاب "يوحنا المعمدان" أي الذي يعمد الناس أو يغلسهم بمياه النهر.

لم يكُن هناك شخصٌ لا يحبّ يحيى عليه السلام في زمانه لكن...

– جاءت نهاية يحيى عليه السلام سريعًا، قيل إنّ عمره وقتها كان 22 عامًا فقط عندما اصطدم بالحاكم الذي كان يحكم المنطقة، قيل إنّ اسمه هيرودوس.

هناك أكثر مِن رواية ووجه لما حدث وسبب التصادم بين الحاكم ويحيى عليه السلام، منها رغبة الحاكم في الزواج من إحدى محارمه، قيل ابنة زوجته، رفض يحيى عليه السلام ذلك واستنكره وحرّمه، وكان الحاكم يعرف يحيى ويعرف شعبيته وحُبّ الناس له، وخشي أن يألبهم عليه لذلك وضعه في السجن، وعشقت ربيبة الحاكم يحيى ورغبت به وذهبت إليه في سجنه لكن يحيى عليه السلام، صدّها ونهرها فلم يكُن في قلبه إلا حُبّ الله تعالى.

وفي أثناء رقصة خليعة وفي أثناء سُكر الملك طلبت منه أن يأتيها برأس يحيى بن زكريا، فأمر الحاكم بأن يُقطَع رأس يحيى وتأتيها في طست، وهكذا اسْتُشهد يحيى عليه السلام.

كما أسلفنا فللقصة أكثر مِن وجه وأكثر مِن رواية، والمهمّ في النهاية أن يحيى عليه السلام، مات شهيدًا وكما قال عنه تعالى:

{وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا}.

– أمّا كيف مات زكريا عليه السلام، فهناك رواية غير مُؤكّدة، تتحدَّث عن نشره بالمناشير وهو مُختبئ في شجرة مِن بعض أعدائه من كفرة بني إسرائيل.

عمومًا حتى مع كون الرواية غير مُؤكّدة فلا يستعبد أي شيء على هؤلاء القوم قتلة الأنبياء والذين قال فيهم الله تعالى:

{أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ}.

حياة hayahbook

-19-

المسيح عليه السلام

كان ذاك هو زمن التناقضات الفجّة، فهناك مِن بني إسرائيل مَن هُم في قمّة الإيمان والتقوى وهُم قلّة، تشمل عمران عليه السلام وآله وتلاميذه المحيطين به في مسجد داوود وسليمان والنبي زكريا عليه السلام، وعلى النقيض منهم كان أغلب رجال الدين اليهودي وكبار القوم..

انحرفوا جميعًا عن شريعة موسى عليه السلام وأحلوا ما حرّم الله عليهم وانتشرت بينهم جميع الموبقات.

وهناك في قلب المسجد كانت توجد نقطة ضوء، بدا أنّ الله تعالى يعدّها لأمر جلل سوف يُزلزل كيان مملكة الفساد القائمة.

تلك هي مريم ابنة عمران عليها السلام، الطّاهرة، البتول، المنقطعة لعبادة ربها تعالى في المحراب، لا تخرج منه، لها ركن خاص بها لا يقربه إنْسِيّ.

هبة أمّها زوجة عمران العالم المبارك من ربه، حين كانت حاملًا بها وهبتها لخدمة المحراب، وها هي الآن تتعبّد فيه ليل نهار.

في ذلك اليوم بينما هي في صلاتها إذ أضاء المحراب بنور أجمل مِن نور الشمس وساده السكون والسلام فوق ما هو كائن فيه وسمعت مريم مَن يُناديها.

{وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ}.

– سمعت مريم عليها السلام، صوت الملائكة وفهمت اصطفاء الله تعالى لها دون نساء العالمين، أكملت الملائكة:

{يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ}.

– يا مريم أكثري مِن ركوعك وسجودك وقنوتك لله ربّ العالمين، إنّه يعدك لمهمّة عظيمة، سوف تغيّر وجه البشرية القاتم حاليًا.

وفعلت مريم عليها السلام ما طلبته منها الملائكة.

– ولم تتأخّر البُشرى عليها.

ذات يوم بينما هي في المحراب تتعبّد لله تعالى إذ بالمحراب يضيء بذاك النور السابق ويغمره السكينة والبهاء، وإذا بها تسمع صوت أقدام تحطّ على الأرض، فزعت مريم مِن صلاتها ونظرت لترى ذلك الواقف

هناك في هيئة بشرية ولا بشري تطأ قدمه مكان صلاتها، دهشت مِن شكله الغريب ومِن وجوده، بادرها بالكلام:

السّلام عليك يا مريم.

فزعت منه مريم عليها السلام وشعرت بالذّعر و...

{قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا}.

تستعيذ بالله منه وتسأله إن كان يتّقي الله، تبسّم الملاك الواقف وأجابها.

{قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا}.

ذعرت مريم مِن ردّ الملاك وهي تتصوَّر كلامه و...

{قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا}.

– وكان ردّه أن تلك قُدرة الله القادر على كل شيء في هذا الكون والذي إذا أراد شيئًا قال له كُنْ فيكون:

{قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا}.

وبالفعل حملت السيدة مريم عليها السلام، بكلمةٍ مِن الله تعالى.

ومِن قبل كان النبي زكريا عليه السلام، زوج خالة مريم، كلما زارها في المحراب وجد عندها رزقًا، طعامًا وشرابًا وفاكهةً في غير أوانها، فيسألها:

يا مريم أنَّى لك هذا؟

فتقول: هو مَن عندِ الله.

كان الله تعالى يطعمها ويسقيها ويتغمَّدها برحمته ورعايته.

– حملت السيّدة مريم عليها السلام، في السيد المسيح عليه السلام، قيل إنّ حملها لم تشعر معه بانتفاخ في بطنها ولا ألم ولا أيّ مِن أعراض الحمل مثل النساء.

وقيل إنّ حملها لم يستمرّ تسعة أشهر كالعادة إنّما كان الأمر كله معجزة، ذات يوم شعرت أنّه يوم وضعها فخرجت إلى مكان بعيد عن المحراب، لم يكُن أحد يعرف أنها حامل وفي حديقة جلست وأسندت ظهرها إلى جذع نخلة، شعرت بآلام المخاض، للحظة شعرت بالحزن وهي تُفكّر في ما سوف يقول عليها قومها فجاءها وحي الله تعالى:

{فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا. فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا. وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا}.

– ووُلد السيّد المسيح عليه السلام.

وُلد بشرًا غير البشر، علامات الطّهر والنّقاء على وجهه، تحدَّث المسيح إلى أمّه وهدَّأها وطمأنها.

نعم تلك كانت أولى معجزات المسيح عليه السلام، تحدَّث وهو في المهد.

قامت السيّدة مريم عليها السلام، وهي تحمل طفلها بين يديها وتتسلَّح بقوّة وتأييد ربها عزّ وجلّ.

جاءت قومها، وكما توقّعت شعروا بالغضب والنقمة عليها، هاجموها واتّهمومها.

{يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا}

كانت مريم عليها السلام صائمةً عن الكلام.

{فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا}

– لكن ما فاجأهم حقًّا كان ذلك الطفل المبارك الذي...

{قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا.وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا. وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا. وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا}.

بمُجرّدِ انتهاء المسيح عليه السلام مِن كلامه، امتقعت أوجه كبار كهنة اليهود.

هذه معجزة حقيقية تقع أمام أعينهم، معجزة تُهدِّد سطوتهم الدينية وسُلطتهم على الناس واستئثارهم بالرب ووساطتهم – التي يدّعون – بين رب إسرائيل وبين الشعب والتي كانت تتيح لهم السلطة والهيبة والمال الوفير، ولم يكُن أمامهم إلا اتهام مريم عليها السلام بالبهتان العظيم.

– وصل الأمر للحاكم الروماني، وصل له أن طفلًا معجزة وُلد في بني إسرائيل تحدّث في المهد وقال كلامًا كثيرًا، وقال بعض الناس إنّه هو الذي سوف يخلص الشعب اليهودي ويُحرّره، إن سلطة روما نفسها في المنطقة مُهدّدة.

عادة لم يكُن الرومان يتدخلون في الصراعات العقائدية بين اليهود، لكن الأمر الآن تجاوز اليهود إلى سُلطة روما.

تضخّم الأمر حتى أصبح كابوسًا يُهدّد الحاكم الروماني، الذي أصدر قرارات حاسمة:

– ابحثوا في كل الأنحاء عن عذراء ولدت طفلًا في هذا الوقت.

– اقبضوا على كلّ مَن رأى السيدة أو ابنها أو له بهم أي علاقة.

– اقتلوا كلّ مولود ذكر وُلد في بني إسرائيل في هذا التوقيت.

وهكذا كان التهديد مُباشرًا للسيدة مريم عليها السلام ولابنها المسيح.

فجأة وجدت السيدة مريم أمامها ذلك الغريب، لم تعُد تشعر بالدهشة بعد كل ما حدث، هي تعلم تمام العِلم بأنّ الله تعالى يحرسها بعنايته ويُرسل ملائكته إليها، قال لها الغريب:

يا مريم، إنّ الحاكم الروماني يطلب رأس ابنك وعليك بالخروج مِن تلك البلاد على الفور.

ردّت مريم عليها السلام: إلى أين؟

أشار لها الغريب قائلًا:

إلى.. مصر التي تقع على حدود فلسطين، والتي كانت دائمًا ما تشهد تعددية دينية وسماحة بين أهلها، إنّ مصر سوف تكون مكانًا آمنًا لها ولابنها حتى تتغيّر الأمور هنا.

وفي الصباح الباكر شدّت السيّدة مريم الرّحال والتحقت بقافلة راحلة إلى مصر.

تغيّرت الأمور في فلسطين، مات الحاكم الذي طالب برأس عيسى عليه السلام، وجاء آخر وآن أوان العودة، وعادت السيدة مريم والسيد المسيح

عليهما السلام إلى الأراضي المقدّسة، كان المسيح كما قيل وقتها في الثانية عشرة مِن عمره، بدأت يتأمّل في خلق الله وملكوته، كان له ابن خالة هو يحيى النبي ابن زكريا عليهما السلام جميعًا، كثيرًا ما تحدّثا وتناقشا معًا، وشبّ المسيح عليه السلام في بيئة يهودية تتمسّك بقدسية يوم السبت وبشريعة موسى ظاهريًّا وتتحايل على خرقها ومخالفتها باطنيًّا، كما فعل أهل السبت منهم مِن قبل وكما يفعلون الآن، خروقًا وصلت إلى مرحلة الكفر مع البعض.

خُذْ مثلًا عندك: قالت شريعة موسى إن مَن ضربك على خدك الأيمن فاضربه على خده الأيمن.

تعرف كيف يطبق هؤلاء تلك الشريعة الآن؟

لو كان المضروب قويًّا ذا سلطة قاموا بهدم بيت الضارب تمامًا، لاحظ ما يفعله الصهاينة الآن في فلسطين مِن نسف منازل رجال المقاومة والشهداء، أما لو كان ضعيفًا فيكتفي بضربه على خدّه ويمتلئ قلبه حقدًا وغلًّا.

هنا كانت أعين المسيح عليه السلام تتفتّح على الأوضاع القائمة...

كان المسيح عليه السلام إذا ما ذهب إلى المعبد اليهودي وجد هناك الكهنة ورجال الدين اليهود يرفلون في ثيابهم الباهظة الثمن ويباهون بها بعضهم البعض، فعلى اختلاف كهنة الطوائف الدينية كان اختلاف الزي والحلي التي يرتدون، فمن اللاويين إلى الفريسيين إلى الصدوقيين إلى غيرهم.

آلاف مِن رجال الدين اليهودي يؤمّون المعابد اليهودية يتمرغون في خير الذبائح والنذور من كلّ شكل وصنف، والتي يُقدّمها المُصلّون الفقراء والذين قد يستدين بعضهم لشرائها للمعبد للتقرّب مِن الله تعالى أو غفران خطايا.

– كان عدد رجال الدين أكثر مِن عدد زوار المعبد والمُصلّين مِن العامة والذين كان أغلبهم يعيشون في فقر مُدقع وبؤس وشظف مِن العيش، ومِن أجل هؤلاء كانت دعوة المسيح عليه السلام.

– في ذلك اليوم بالتحديد، خرج المسيح عليه السلام مِن المعبد غاضبًا على تلك الأوضاع القائمة وعلى ذلك الكفر الخفي والخداع الذي يمارس باسم الله تعالى، لم يبقَ مِن شريعة موسى عليه السلام إلا ظاهرها فقط، أمّا روح الشريعة فقد نسخت وتغيَّرت ولم يعُد لها وجود.

ذهب المسيح إلى الجبل ووقف فوق تلال الناصرة يبتهل إلى الله تعالى.

كم كان ذلك الوجه النبيل الطاهر حزينًا!

لماذا تبدو الليلة مُختلفة؟

هناك حزن يعمّ فلسطين بل والأرض كلها، يعلم المسيح أن ابن خالته يحيى عليه السلام سجينًا لدى الحاكم الروماني، لكن ما لم يعلمه هو أن يحيى قد قُتل الليلة، قُدّم رأسه قُربانًا مِن أجل عاهرةٍ.

وعمّا قريب سوف يلحق به زكريا عليه السلام.

الظلم يشتدّ والطغيان والفسق يتغوّلان في الأرض وشريعة موسى عليه السلام تحوَّلت إلى سلاح فتّاك في يد السلطة ورجال الدين اليهودي المُنتفعين.

– هذا العالم لا يحتاج إلى القتل والانتقام، هذا العالم يحتاج إلى الحبّ والتسامح والمساواة، وهذا ما بعث مِن أجله عيسى عليه السلام، نزل الوحي عليه وعلّمه روح القدس جبريل عليه السلام، بأمر من الله تعالى، التوراة الأصلية التي نزلت على موسى عليه السلام وأنزل عليه الإنجيل وبدأت دعوة المسيح.

– تميَّزت دعوة عيسى عليه السلام، منذ بدايتها إلى نهايتها بالروحانية والشفافية والنقاء، كانت دعوة تستهدف خلاص الروح في عصر تغوّلت فيه الشهوات المادية، وقد أيّد الله تعالى عيسى عليه السلام بالكثير من المعجزات.

{إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ}.

وهكذا تُبيّن الآيات معجزات عيسى عليه السلام.

– تكليمه الناس في المهد.

– تعليمه توراة موسى الأصلية والتي كانت تغيّرت وتحوّرت واختفت تقريبًا.

– تصويره مِن الطين كهيئة الطّير ثمّ النفخ فيه فيكون طيرًا.

– إحياؤه الموتى الذين في القبور.

– شفاؤه الكفيف وردّ بصره وكذلك الذي أُصيب بالبرص.

– إخبار الناس بما يأكلون وما يدّخرون في بيوتهم دون أن يكون قد دخلها.

كانت تلك المعجزات وجدت صدى في نفوس البعض وآمن بعيسى عليه السلام، مَن شفاهم بإذن الله ومَن كلّم لهم أمواتًا بإذن الله ومَن أخبرهم عمّا يدّخرون في بيوتهم بإذن الله، وآخرون كثيرون فتح الله بصائرهم.

وأصبحت دعوة عيسى عليه السلام تنتشر وتجد لها صدى ووقعًا في نفوس الضعفاء والفقراء والمستضعفين والمظلومين من الشعب.

وعلى النقيض أوغرت صدور رجال الدين اليهود ورجال السلطة والمنتفعين بالأوضاع القائمة وملأت قلوبهم حقدًا وغلًّا على عيسى عليه السلام.

كذّبوه واتّهموه بالسحر لكن النبي الكريم كان كل يوم يكتسب له أرضًا وأتباعًا جُددًا.

– سُمِّي تلاميذه الحواريين، صدَّقوه وآمنوا به واتبعوه، وما زال الله تعالى يُؤيِّده بالمعجزة وراء المعجزة لعلّ قلوبًا غلفًا وعقولًا مُتحجّرة تُؤمن بالله.

ذات يوم كان عيسى عليه السلام والحواريون صائمين، لم يكُن لديهم طعام يأكلونه فحدَّثوه قائلين:

{إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ۖ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ}.

وأنزل الله تعالى مائدة من السماء تحملها الملائكة على عيسى والحواريين، هناك خلافات على ما كانت تحمل أو هل هو طعام من الجنة أم غير ذلك، وفي رأيي أنّ كل هذا لا يهم، المهمّ أنّها كانت معجزة أخرى للمسيح عليه السلام.

ذهب بعض العلماء إلى أنّ كثرة معجزات المسيح عليه السلام بدءًا مِن ولادته مِن مريم العذراء عليها السلام ومرورًا بكلامه في المهد والمعجزات السابقة، سببها مرافقة روح القدس الأمين جبريل عليه السلام له طوال الوقت.

– قُويت شوكة المسيح عليه السلام وأتباعه وأصبحوا يحيطون به ويتكاثرون حوله يومًا وراء يومٍ.

هنا وجدت السلطة الدينية اليهودية في عيسى عليه السلام تهديدًا وخطرًا داهمًا على وجودها ومصالحها، فلم يكُن أمامهم إلا الكيد له ولأتباعه.

وبدأت اجتماعات مجلس السنهدريم (المجلس اليهودي الأعلى) وبعد أن عجز عن مواجهة عيسى عليه السلام، رغم كلّ ما اتهموه به وأبطله الله تعالى، وكان القرار بقتل المسيح.

ومِن قبل كانوا قبل أبلغوا الرومان بخطورته وأتباعه وتحالفوا معًا للقضاء عليه، وبدأ التفكير في كيفية القبض عليه دون إثارة شغب واحتجاج أتباعه الذين يحمونه، وكان لا بد من وجود...

خائن.. نعم، لا بدّ مِن خائن يُسلّمهم المسيح، وكان هذا الخائن هو أحد اتباع المسيح عليه السلام المقربين..

يهوذا الإسخريوطي.

ذهب الخائن إلى المجلس اليهودي يُساومهم على تسليمهم عيسى عليه السلام، واتفقوا معه بالفعل وباعه الخائن لهم بمقدار زهيد، مقدار شراء عبد، حسب الشريعة اليهودية، وخرج رئيس الكهنة يشقّ ثيابه بطريقة مسرحية قائلًا:

إن عيسى قد جدف (كفر).

وكانت تلك عادة عند كهنة اليهود تعبيرًا عن الكفر.

– تمّت المؤامرة بالاتفاق مع السلطة الرومانية، وتحت جنح الظلام ذهب الجنود الرومان إلى المكان الذي أرشدهم إليه يهوذا الخائن، ودخلوا بهدوء للقبض على المسيح عليه السلام يقودهم يهوذا.

هنا ذهب بعض علماء ومُفسّري القرآن الكريم لرواية تقول:

إن يهوذا عندما اقتحم الغرفة كانت الملائكة رفعت المسيح عليه السلام إلى السماء، بينما ألقي الشّبه في الشكل والصوت على يهوذا فلمّا دخل الجنود الرومان خلفه قبضوا عليه على أنّه المسيح عليه السلام وذلك تفسيرًا للآيات الكريمة:

{وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا. بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}.

وآيات الله تعالى واضحة لا لبس فيها.

{وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم}.

– رفع الله تعالى المسيح عيسى ابن مريم إلى حين، وبقيت دعوة الحُبّ والسلام وبذرة بذرها ابن مريم عليه السلام في مجتمع كافر بين بني إسرائيل في ذلك الوقت، زلزلته وهزّته مِن الجذور.

hayahbook - حياة

-20-

محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

دعوة إبراهيم...

{رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}

– وبشارة عيسى...

{وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ}.

""

– أمام عرافة قريش وقف عبدالمطلب يحكي لها رؤيا أدهشته:

"إني رأيت الليلة وأنا نائم في الحجر كأنّ شجرة نبتت على ظهري قد نال رأسها السماء، وضربت بأغصانها الشرق والغرب، ورأيت نورًا يزهر منها، أعظم من نور الشمس سبعين ضعفًا، ورأيت العرب والعجم ساجدة لها، وهي كل يوم تزداد عظمًا ونورًا".

وكان تفسيرها: سوف يخرج مِن صلبك ولد يملك الشرق والغرب وينبأ في الناس.

– ما بال الأرض والسماء اليوم تتهيّأ لحدث عظيم.

حدث لا يشبهه إلا هبوط آدم عليه السلام إلى الأرض.

– وطوفان نوح عليه السلام الذي أغرق الأرض كلها.

سقطت الأصنام في الكعبة المشرفة.

وجفت بحيرة ساوة المُقدّسة عند الفرس.

انطفأت نيران المجوس المُقدّسة الموقدة منذ ألف عام لم تنطفئ.

فزعت الشياطين وألقيت بالشهب وأغلقت السماوات في وجهها وكانت مِن قبل تقعد بها مقاعد للسمع فتستمع إلى نبأ السماء والأرض.

جزع إبليس الرجيم وفزع وهلع وأدرك أنّ الوقت المعلوم اقترب بشدة.

ساد السلام والنور مكة المكرمة وتنزّلت فيها الملائكة أفواجًا.

الكلّ في انتظاره هو.

وفي لحظة مباركة في السّموات والأرض وُلد.

محمد في الغيوب.

في لوحها المكتوب.

بُشرى تهزّ القلوب...

بالرحمة المهداه...

– نحن الآن في العام 751 ميلادية.

ما هذا الكفر الذي ملأ الأرض شرقها وغربها؟!

في الشرق سيطر الفرس المجوس عبدة النار على أغلب الأرض، يعبدون النار المقدّسة.

وفي الجزيرة العربية سادت عبادة الأصنام حتى في قلب بيت الله الحرام امتلأت الكعبة المشرفة بها..

وفي الغرب غيّرت روما وبدّلت في دين المسيح عليه السلام، بعد أن تحولت الإمبراطورية الرومانية إلى المسيحية، وجاءت بما لم يأتِ به المسيح عليه السلام واضطهدت مَن خالف مذهبها.

الأرض تعجّ بالكفر والشرك وعبادة ما لم يكُن يصل إليه خيال إبليس الرجيم نفسه.

مِن أصنام حجارة إلى أوثان مِن عجوة وخشب إلى ذهب إلى مال إلى ملوك إلى حيوانات إلى نار إلى نجوم إلى ماء إلى.. إلى.. إلى..

– لم يترك الإنسان الضّال شيئًا في الأرض إلا عبده دون الله الخالق القادر.

لا توجد فيها بقعة واحدة مؤمنة إلا أشخاص مُتفرّقون لا يمثلون شيئًا إذا ما قورنوا بالكفر.

الحروب والنزاعات والقتل والوأد والظلم والعبودية والعصبية والفواحش بكل صورها انتشرت في كل مدينة وكل قرية وكل وادٍ في الأرض.

في ما بعد ورد في حديث شريف عن تلك الفترة:

{وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}.

– ومِن فوق عرشه الذي اتخذه في الأرض، ابتسم الشيطان الأكبر.. إبليس الرجيم في رضا تام وحوله أتباعه وهو يرى ما وصلت إليه ذرية آدم عدوّه اللدود الذي تسبّب في هبوطه مِن الجنة.

ولكن...

وفي لحظة النشوة الكبرى بالنصر تزلزل عرشه مِن أسفله وأدرك أن حدثًا خارقًا قد حدث في الدنيا.

صرخ إبليس صرخة لم يصرخ مثلها إلا يوم لعنه ربّ العالمين ويوم هبط إلى الأرض.

– تلك كانت اللبنة الأخيرة في بناء شاء له الله تعالى أن يقام في الأرض.

بناء الرسل والأنبياء الذين أرسلهم لهداية بني آدم ضد غواية الشيطان وغواية أنفسهم.

وكان هو.. مُحمَّد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ويتصل نسبه بإسماعيل عليه السلام ابن إبراهيم عليهما السلام.

– محمد عليه الصلاة والسلام..

ابن الذبيحين المفديين.

إسماعيل عليه السلام جَدّه حين أراد إبراهيم عليه السلام أبوه، أن يذبحه تنفيذًا لأمر الله وافتداه الله بكبش عظيم.

وأبوه عبدالله حين كاد أبوه عبدالمطلب أن يذبحه تنفيذًا لنذر نذره لله عند الكعبة وافتداه الله بمائة ناقة.

أعظم لبنة وضعت في البناء..

دُرّة التاج.

الذي اقترب مِن رب العرش عز وجل بمقدار لم يسمح لبشري ولا لملاك مِن قبل ومِن بعد أن يصل إليه ولا حتى الرّوح القدس نفسه عليه السلام.

حبيب الرحمن.

خاتم المرسلين.

إمام الأنبياء...

صاحب المقام المحمود.

سيّد الأوّلين والآخرين...

أوّل مَن تنشق عنه الأرض يوم القيامة.

صاحب الشفاعة.

الذي أجابه ربه عزّ وجلّ على كل ما طلب حين قال: "يا محمد ارفعْ رأسك وقُلْ يُسمع لك وسل تُعط واشفع".

أوّل مَن تفتح له أبواب الجنة.

دعوة إبراهيم.

ونبوءة موسى.

ترنيمة داوود.

وبشارة عيسى.

ذلك هو محمد رسول الله.

وبميلاده بدأت الأرض عصرًا جديدًا مِن عصورها..

عصر تسوده أمّة لم تشهد مثلها مِن قبل.

وبدأت كتابة فصل جديد مِن تاريخ البشر على الأرض.

الفصل الأخير في التاريخ.

hayahbook - حياة

والرّسل والأنبياء.

صَرْح عظيم البناء.

بناه ربّ السماء.

محمد.

منتهاه.

صلّى الله عليه وسلم.

hayahbook - حياة

تمَّت بحمد الله

ملاحظة:

الشعر من كلمات (عبدالفتاح مصطفى)

hayahbook - حياة

المراجع

أنبياء الله (أحمد بهجت)

البداية والنهاية (ابن كثير)

خواطر الشيخ الشعراوي

موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية (عبدالوهاب المسيري)

hayahbook - حياة